كتب ثقافية

الحياة فى عهد الفراعنة

تأليف

ليونارد كوتريل

ترجمة

شفيق أسعد فريد

الحياة فى عهد الفراعنة

تأليف
ليونارد كوتريل

ترجمـــة
شفيق أسعد فريد

الفصل الاول

الارض والقوم والآلهة

من الحقائق القديمة ان اخلاق الناس تتشكل تبعاالارض والمناخ اللذين يعيشون فيهما . فاذا صح هذا القول بالنسبة لشعب كالشعب الانجليزى الذى غزا بلاده منذ اقل من ١٥٠٠ سنة ، اوبالنسبة للامريكيين الذين استوطنوا قارتهم الشاسعة منذ اجيال قليلة ، فانه — أى هذا القول اصدق بالنسبة المصريين الذين عاشوا فى واديهم الضيق الذى تحف به الصحراء منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنة ! كذلك فان الدول الاخرى تغيرت وتطورت على توالى الاجيال ففقدت كثيرا من صفاتها الاصلية ، بينما بقيت مصر على حالها ، اذ مازالت الاحوال نفسها التى كانت تتحكم فى حياة الملايين الذين عاشوا تحت حكم الفراعنة قائمة حتى الان الى حد كبير ، ومن ثم فانه من الضرورى — قبل ان نحاول وصف الشعب ، ان نقدم صورة ولو مجمآة لهذه البلاد غير العادية التى لا مثيل لها فى العالم كله .

منذ أمد غير بعيد كنت استقل القطار فى طريقى من الاقصر الى القاهرة . وكان الوقت ليلا ، فرحت اتأمل ما حولى برغم ان هذه الرحلة لم تكن اولى رحلاتى من الاقصر . ولم يقع بصرى الا على ما الفته من مناظر فى رحلاتى السابقة . فالمسافة بين القاهرة والاقصر ٤٠٠ ميل يقطعها القطار فى عشر ساعات ، ولا ترى العين فيها الا حقول القطن المترامية ومزارع قصب السكر والقرى المشيدة بالطوب النىء واشجار النخيل . وعلى يمين هذا الشريط الزراعى وعلى يساره تلال صحراوية داكنة اللون تقترب منك حينا وتبتعد حينا اخر ، ولكنها لا تغيب عن ناظريك ابدا .

وهكذا كنت كمن يراقب فيلما عن رحلة تتكرر مناظرها وسرحت بخاطرى ، وسرعان ما بدات الصور تتشكل فى ذهنى

تخيلت ان الها يتطلع من سمائه الى هذه الافعى الخضراء وادى النيل الذى يتلوى عبر الصحراء بطول ٦٠٠ ميل بينما لا يزيد عرضه على اميال قليلة فى بعض الاماكن . ويقل عن ميل فى اماكن اخرى ، وحيث تمتد من الغرب مساحات لا نهاية لها من الرمال والصخور ـ الصحراء .. ومن الشرق الصحراء العربية التى تمتد عدة مئات من الاميال الى ان تصل الى البحر الاحمر . واذ كان القمر متلألئا ليلتذاك ، ادركت ان الهى السماوى سيرى اضواء متألقة على طول شاطىء النهر.. سيرى بلادا كقنا واسيوط والبلينا ، ولكنه لن يرى مئات القرى المعتمة التى ينام فيها ملايين الفلاحين المكدودين فى بيوتهم المشيدة من الطوب النيىء حتى يحين الفجر فيخرجون الى حقولهم المسطحة ليزاولوا عملهم الخالد .

ترى كم مليونا من البشر منحهم هذا الثعبان الاخضر الحياة خلال مئات القرون الماضية ؟ لا ريب ان الهى السماوى ـ وهو اله خالد ـ يذكر ذلك الوقت الذى لم يكن هذا الشريط الصحراوى الاخضر معروفا فيه الا للحيوانات والطيور والزواحف فقط ، عندما كانت الاسود والضباع والقردة والذئاب تحوم حول حوافى الصحراء ، وعندما كان فرس البحر يخوض الماء ، بينما كانت اسراب هائلة من الاوز ترتفع فى الجو الى ما فوق مستنقعات البردى قبل ان يعرف الانسان هذا الوادى

ولا ريب ان الهى راى الغاب وهى تتحول ، قرنا بعد

قرن ، الى ارض زراعية ، وراى لاول مرة ظهور المدن المنظمة على هذا الكوكب تحف بها الحقول ، وتشقهاالطرق والقنوات ، بينما كانت بقية الجنس البشرى ، معظمه . تنتقل من منطقة صيد الى منطقة اخرى .. انهم برابرة لا يجيدون شيئا غير قتل الحيوانات حتى لا يهلكوا جوعا

ثم تمضى الايام حتى ٤٥٠٠ سنة ماضية ، حينما راى الهى الاهرامات وهى ترتفع نحو السماء مبعثرة كالابنية التى يشيدها الطفل بطول ثلاثين ميلا على الشاطىء الغربى .. انها المنازل الخالدة التى بناها الملوك الذين كانوايطمعون فى ان يصبحوا الهة ، وراى ايضا مدينة ممفيس العظيمة بقصورها ومعابدها وحدائقها ، وغيرها من المدن المنشورة على طول الوادى من الدلتا الى حدود النوبة .. وبعد ذلك بخمسة عشر قرنا ، راى الهى طيبة ، المدينة الالهية . وهى تنهض تحت حوافى تلال طيبة المقتطعة ، ولو اطال آلهى التأمل الى اسفل لوقع بصره على بريق ينبعث من عربة فرعون الحربية الذهبية ، والغبار الذى يتصاعد من خلفها تثيره اقدام طوابير الجنود الذين يسيرون خلفه وهميزحفون جنوبا لتأديب النوبيين ، او شمالا بشرق لقتال الحيطيين

وهو يذكر ولا شك السفن الكريتية حينما كانت تتحرك فى النيل فى طريقها الى طيبة حاملة الهدايا لفرعون ، ويذكر ايضا تلك السفن مختلفة الاشكال وهى تتحرك فيما بعد يسيرها رجال مقدونيا الشرسين بقيادة ثوار الاسكندر الاكبر . كما راى مجىء الرومان ، وراقب كتائب حادريان وهى تعسكر بجانب ممنون بالاقصر ، ثم تنصرف الى مزاولة اتفه الاعمال بين المقابر التى انشئت منذ الف عام ، ثم يحفر رجالها اسماءهم على الجدران مثلما كان السائحون يفعلون فى القرن التاسع عشر

وبعد ذلك ، جاءت جيوش المسلمين بجيادها واعلامهـا ، وبعدها جيوش الترك ، فجيوش نابليون ، فأسطول نلسون في ابي قير . ثم جاء جوردون ليزحف جنـوبا حيث لقى مصرعه فى الخرطوم . وبعدئذ ومضت المدافع عند العلمين . . كل هذا راه الهي . . واما الان فـانه يرى ولا ريب ذلك القطار الذى استقله وهو يزحف شمالا بجانب النهر المتعرج

ان هذا هو السبب الذى يجعل هذه الرحلة تخلب لبى برغم انني قمت بها عدة مرات . فأنت ، حينما تستقل القطار من الاقصر الى القاهرة ، تسافر عشر ساعات عبر اكثر من نصف تاريخ الجنس البشرى .

***

هناك اذن وجدت تلك الارض الضيقة المحصـورة التى تحف بها الصحراء القاسية وان اينع فيها الـزرع بسبب الطمى الذى يحمله النيل الى حقولها عند فيضانه كل عام فى هذا الوادى الضيق ، ومنذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة قبـل مجىء المسيح ، ازدهرت اقدم حضارة عرفها العالم . . ان الاهرامات والمقابر والمعابد والمسـلات تتحـدث عن قـوة ملوكها ، وأسرار ديانتهـا ، وامتيـاز ثقافتها . . واذ كان المصريون القدامى يحبون الحياة . ويتلهفون على استمرارها بعد انتهاء العالم ، فقد ترك أثرياؤهم صـورا وتماثيـل فى قبورهم تبين حرفهم ومهنهم بوضوح ، كما تبين الملـذات التى استمتعوا بها فى حياتهم وكانوا يتلهفون على استمرارها فى الحياة الاخرى .

لقد تركوا لنا ايضا امثلة كثيرة من اثاثهم وثيـابهم ، ونماذج لمنـازلهم واسلحتهم الحربيـة وقواربهم والعـابهم ووسائل تسليتهم ، ووثائق مختلفة فمن تواريخ رسـمية

ونصوص دينية واتفاقات تجارية الى تمارين مدرسية وقصائد شعرية وقصص خيالية

لكل هذا ظل المصريون اكثر الاجناس غموضا فى نظرنا ، ويرجع ذلك جزئيا الى ان الغموض اكتنف هذا الشعب الى حوالى ١٢٠ سنة ماضية عندما بدىء بفك طلاسم اللغة الهيروغلوفية .. كنا نراهم شعبا خلف اثارا وتماثيل ورسوما ولكن لفئة مجهولة .. صحيح ان المؤرخين الكلاسيكيين والرحل امثال هيرودوت وبلينى وديودورس سيكولاس تركوا اسفارا عن رحلاتهم الى مصر ، ولكن هذه الاسفار كانت تدعم الاسطورة لانه وان بدت ديانة المصريين وعادتهم التى وصفها هيرودوت غريبة فى عينيه ، فانها كانت تبدو ولا ريب اكثر غرابة فى نظر مؤرخى القرن التاسع عشر.. وحتى عندما بدىءبترجمة اللغة الهيروغلوفيةترجمة ركيكة ، تبين أن مجموعة الاسفار والمخطوطات لم تهتم اساسا بالمصريين كبشر مثلنا يجيدون وينجبون اطفالا ويعملون ويستمتعون بالاسباب الرياضية وضروب التسلية وانما اهتمت بهم باعتبارهم جنسا عليلا مكتئبا تشكل فكرة الموت باله دائما - وتبدو ديانته مزيجامن السحر والخرافات والالهة ذات الرؤوس الحيوانية والمسخ التى تختلف عن الهة والهات الاغريق من حيث انها لا تتصف حتى بالصفات البشرية التى نتمتع بها .

كان ذلك قذفا فى حق قدماء المصريين الذين يبدو انهم كانوا - كاحفادهم الحاليين - شعبا يحب المرح والحياة - بيد انه ليس من الصعب علينا ان نعرف كيف اكتسب قدماء المصريين ما نسب اليهم بلا حق من انهم كانوا قوما ميالين للاكتئاب والغموض .

لقد كانوا جميعا يأملون بحماس أن تكون هناك حياة أخرى شبيهة بالحياة الحالية بالنسبة اليهم جميعا دون ملوكهم الالهة . ولكى يستمتعوا بهذه الحياة الثانية ، ظنوا انه من الضرورى ان يبنوا لانفسهم - اذا استطاعوا تدبير المال اللازم لذلك - « منزلا خالدا » عبارة عن قبر يبقى قائما الى الابد ، وان يضعوا بداخله - سواء بالفعل او بالتصوير - الادوات التى سيحتاجون اليها لتجعل حياتهم مريحة وسعيدة : ملابسهم واثاثهم وأدواتهم المنزلية والقوارب التى سيسافرون بها فى النيل السماوى وأسلحة صيدهم التى سيستعملونها فى صيد السمك ، كما اودعوا هذه المقابر تماثيل او صورا رسموها على الجدران تمثل الخدم الذين سيتولون خدمتهم بعد موتهم مثلما كانوا يفعلون فى حياتهم .. ان هذا الاتجاه المادى نحو الموت هو الذى خلف لنا ذلك التراث الكبير من الاشياء الجميلة أو الغريبة التى نراها فى جميع متاحف العالم

ثانيا ، لقد بنى قدماء المصريين منازلهم من الطوب وهما مادتان تبليان بفعل الزمن ولهذا اختفت من عالم الوجود ، بينما بنوا مقابرهم لتظل قائمة ابدا ، ولهذا بقيت . وينطبق هذا القول على المعابد العظيمة التى كانت الهتهم تسكنها ، وهكذا بقى معبد امون الهائل فى الكرنك بأعمدته التى يبلغ ارتفاعها ٧٠ قدما ، وأروقته الضخمة ليثير حيرتنا ودهشتنا ، اما قصور الملوك ومنازل النبلاء بساحاتها وحدائقها وملايين المنازل الشعبية فقد زال معظمها من عالم الوجود ، ومن ثم فاننا اذا زرنا مصر فاننا لن نرى غير المقابر والابنية الدينية ، واذا زرنا متحفها المحلى

فسنجد ان معظم الاشياء المعروضة به تحمل معنى دينيا او جنائزيا

ولكن الجهود التى بذلها علماء الاثار والمؤرخون اثمرت ثروة قيمة من المادة البشرية التى تثبت ان قدماء المصريين كانوا يؤدون اعمالا اخرى ، ويهتمون باشياء اخرى الى جانب عبادة الهتهم او الاستعداد للعالم الاخر ، ومن هذه المادة ومن ملاحظاتى الخاصة ، ارجو أن ارسم صورة الحياة فى مصر القديمة ـ فى المعسكرات والقصور ، وفى المزارع والمحاكم والمعابد ، وفى المنازل ايضا .

ولكنى ارى اولا ان احذر القارىء من صعاب واخطار معينة ، فان التاريخ المصرى الذى نعالجه يغطى اكثر من ٣٠٠٠ سنة ، ولهذا فان من الصعب وصف حياة شعب كان يعيش منذ اكثر من ثلاثين قرنا ، ولو ان عآمنا بان قدماء المصريين كانوا قوما محافظين جدا يجعلنا نعتقد بان العناصر الاساسية فى حياتهم لم تتغير كثيرا ، ولعل مما يدعم هذا الراى ان طابع الحياة الزراعية فى مصر اليوم لا يختلف كثيرا عما كان عليه ايام مصر الفرعونية ، وان الادوات التى يستعملها الفلاحون الحاليون تشبه الى حد كبير تلك التى كان يستعملها اسلافهم ، بل ان الالات الموسيقية التى يستعملها الفلاح المصرى الآن فى ساعات فراغه القليلة تشبه الالات المرسومة على جدران معبد طيبة

وتجنبا لكل خلط ، حرصت على أن اذكر العهد الذى ترجع اليه الامثلة التى يتضمنها هذا الكتاب ـ والتى تصور الحياة فى كل من المملكة القديمة والوسطى والحديثة ..

اما الخطر الثانى الذى اخشاه فهو ان يعتقد القارىء خطأ انه لما كان قدماء المصريين بشرا مثلنا ، لهم عواطف

كعواطفنا ، واسرة ينامون عليها متأنا ، ويرسلون اولادهم الى المدرسة او يلحقونهم بالجيش كما نفعل ، فانهم كانوا ولا ريب يشبهوننا تماما .. وهذا خطأ كما قلت ، اذ مع انه صحيح ان الطبيعة البشرية تغيرت تغيرا طفيفا جدا خلال ٥٠٠٠ سنة ، الا انه برغم ما كان المصريون القدماء يتمتعون به من حضارة ، فان الفجوة التى تفصل بينهم وبين المعتقدات البدائية كانت اضيق كثيرا مما هى بيننا وبين هذه المعتقدات ومع ان ديانتهم كانت تشتمل على مادة اخلاقية الا انها كانت حافلة بالسحر والشعوذة التى انحدرت اليهم منذ الايام غير البعيدة التى سبقت ازدهار الحضارة الاولى على شاطىء النيل : فى ذلك العالم عاش الاسلاف المتوحشون من قدماء المصريين فى جو من الخوف تحيط بهم قوات معادية كان ينبغى التغلب عليها اما بالسحر او مهادنتها بالتضحية بالدم .

ان القول بأن ديانة قدماء المصريين كانت تسيطر تماما على حياتهم ينطوى على بعض المبالغة ــ بيد انه من المحتمل ان الدين لعب فى حياتهم اليومية دورا اكثر اهمية مما لعب فى حياة الشعوب الغربية المتمدينة . وما لم ندرك ذلك ، وما لم نشحذ خيالنا حتى نستطيع ان نقرأ ما كان يجول فى اذهان قدماء المصريين ، فاننا لن نستطيع ان نفهمهم ، ولهذا فاننى اعتزم التعرض لهذه الناحية الدينية الهامة نظرا للدور الكبير الذى لعبته فى حياة قدامى المصريين

فى الامكان الحكم على مدى تعقيد ديانة قدماء المصريين اذا عرفنا ان المؤرخين استطاعوا ان يميزوا فى البانثيون المصرى اسماء ٢٠٠ اله منفصل .. فقبل ان تصبح مصر دولة موحدة فى بداية الاسرة الاولى « ٣٢٠٠ ق .م. » كانت مئات القبائل تعيش فى حوض النيل ، وكان لكل

من هذه القبائل الهتها المحلية ، وكان بعض هذه الالهة من زعماء القبائل ، وبعضها الاخر حيوانات او زواحف اوطيور .. وبعد توحيد مصر فى عهد الملك مينا ، اصبح اله المدينة او الاقليم الذى جاءت منه الاسرة آلمالكة هو الآله الـرئيسى او اله « الدولة » .. ففى المملكة القديمة ــ وهى عصر بناة الاهرام « ٢٧٨٠ ــ ٢١٠٠ ق.م. » ــ كان اله الدولة هو رع اله الشمس الذى تركزت عبادته فى هليوبوليس التى لم تكن تبعد كثيرا عن العاصمة ممفيس . وبعد ذلك بكثير ، اى عندما حكمت مصر اسرة من طيبة ، اشترك آمون ــ اله طيبة ــ مع رع فى احتلال عرش الالوهية الرفيع ، والواقع ان الاثنين اصبحا يعرفان باسم آمون ــ رع ملك آلالهة . ولكن ذلك لم يؤد الى تخلى المصريين عن مئات الالهةالصغيرة المحلية ، وانما ظلوا يعبدونها فى اقاليمهم فترة طويلة الى ان ادمجها الكهنة فى بعضها بطريقة غريبة معقدة لا ريب انهـا حيرت المصرى العادى مثلما حيرتنا .

كان اهم تطور دينى فى المملكة الوسطى « ٢١٠٠ ــ ١٧٠٠ ق . م . » هو ظهور مذهب أوزوريس الذى استمرالناس يعتنقونه حتى العصر الرومانى . وكان مذهب يتمتع بقـوة تأثير على الجماهير تفوق قوة تأثير آمون ــ رع نفسـه . ولعل الفقرة الموجزة التالية تساعد القارىء على فهم الدور الذى لعبته اسطورة ايزيس واوزوريس فى حيـاة قـدماء المصريين اليومية .

« كان لاسلاف قدماء المصريين ــ كما كان لمعظم الشعوب البدائية ــ اساطيرهم الشعبية التى تفسر أصل العـالم .. كانوا يعتقدون أن المحيط وحده هو آلذى وجد فى بـداية العالم . ثم ظهرت على سطح هذا آلمحيط بيضة « وفى بعض النصوص زهرة » ولد منها اله آلشمس . وكان لهذا الاله

اربعة ابناء هم جب ، وشو ، وتفنت ، ونت .. وقد ثبت جب ، وشو ، وتفنت اقدامهم فى الارض ورفعوا اختهم نت فى الجو ، وهكذا اصبح جب الارض ، وشو وتفنت الجو ونت السماء . وانجب جب اربعة اولاد هم اوزوريس وايزيس ، ونفيتس وست . وارتقى اوزوريس عرش ابيه . وحكم العالم بحكمة وعدل تعاونه اخته ايزيس التى تزوجها . وقد اكلت الغيرة قلب ست بسبب ما كان اخوه يتمتع به من سلطان ، فدبر مؤامرة القضاء عليه ، ونجحت المؤامرة ، وقطع ست جثة اخيه اوزوريس اربا ودفنها فى عدة اجزاء من مصر ، اما الراس فدفنه فى ابيدوس ، ولكن ايزيس المخلصة استطاعت ان تسترد اجزاء جثة زوجها المبعثرة ونجحت ـ بمعاونة ابن اوى الاله انوبيس الذى اصبح فيما بعد اله التحنيط فى تجميع الجثة . ولما فشلت فى بعث الحياة فيها ، انتقل اوزوريس الى العالم الاسفل حيث اصبح اله الموتى وفيمابعد قاضى الارواح .. وحملت ايزيس ابنا هو هوراس الذى ثأر لابيه من عمه فيما بعد ، فهزم الغاصب واسترد عرش ابيه

اشتهرت هذه الاسطورة لدى المصريين جميعا ، ولم تفقد تأثيرها عليهم فى يوم من الايام بسبب شدة جاذبيتها ، واصبحت ايزيس المثل الاعلى للزوجة الوفية والام ، وهوراس الابن المثالى .. وفى المملكة الوسطى تحولت الاسطورة الى مذهب دينى ، واصبحت ابيدوس ، وهى المدينة التى كان معروفا ان راس اوزوريس دفن بها ، مكانا يحج اليه الناس فكان الالاف يجيئون الى ابيدوس كل عام ليشاهدوا تمثيل بعض مناظر من حياة اوزوريس ، وليسيروا فى موكب دفن

جثة الاله فى قبره المزعوم .. وهكذا اصبحت ابيدوس من اهم الاماكن المقدسة فى مصر

***

مع ان تعقيدات الدين المصرى العالى لم تكن تهم جماهير الشعب ، ومع ان طقوس هذا الدين لم تكن تتبع الا فى معابد أمون ـ رع اله الدولة ، ألا انه من الضرورى أن نتذكر ان هذه الالهة وغيرها من الالهة الصغرى تغلغلت تماما فى حياة الشعب . والدليل على ذلك اننا نجد فى جميع المتاحف ومتاجر العاديات فى العالم تماثيل صغيرة من البرونز لآمون ـ رع وايزيس وأوزوريس وهاتور الهة الحب والجمال وبس الصغير البدين اله الموسيقى والرقص ومئات غيرهم . فقد كانت هذه الالهة ترافق الناس كل يوم وتحتل مكانة رفيعة فى بيوت قدماء المصريين تشبه المكانة التى تحتلها الان تماثيل المسيح فى بيوت المسيحيين .

الا ان الفرق واضح بين الهة قدماء المصريين وبين الانبياء والرسل . ففى الاديان السماوية ، ينطوى الناس جميعا تحت هذه الاديان باستثناء واحد ، فالبعض انبياء نزل عليهم الوحى الالهى ، والبعض قديسين وشهداء ، ولكنهم جميعا بشر حتى ولو توفرت فى بعضهم صفات روحية تفوق صفاتنا . اما بالنسبة لالهة قدماء المصريين فقد كانت مخلوقات خارقة : زيوس ملك الالهة ، وبوسيدون اله البحر وافروديت آله الحب ، وآريس آله الحرب .. وهلم جرا .. ومع أنهم خالدون وهبوا قوى خارقة الا انهم مازالوا بشرا لهم اشكال البشر وبهم ضعف البشر

فاذا تأملنا صور الالهة المرسومة على البانثيون المصرى لراينا عجبا . فهذا اله له جسم انسان وراس ابن اوى ،

وهذا اخر له راس كبش تقف الى جانبه امراة لها راس لبؤة ، وعلى مقربة منها يقبع تمساح هو بدوره اله مثل البقرة التى تقف على مسافة ليست بعيدة عنهم ، بينما قبع الملك تحتها وهو يرضع اللبن من ضرعها .. انها هاتور الهة الحب عند قدماء المصريين

ان هذا التباين هو الذى يحير عقولنا ، فهؤلاء قوم تثير مبانيهم وتماثيلهم ورسوماتهم دهشة العالم ، قوم بنوا الاهرامات ومعبد الكرنك ، وفهموا الفلك ، واجادوا فنون الهندسة الدقيقة ، ومارسوا الطب والجراحة . وانشأوا نظاما مدنيا اداريا ممتازا ، وغزوا وادارو امبراطورية امتدت فى احد الاوقات من السودان الى الفرات ، وابتكروا طريقة رائعة للكتابة ، واشتهروا بالحكمة التى عترف بهما حتى اليونانيون انفسهم ، ومع ذلك فان هؤلاء القوم عبدوا القطط والثعابين ، وكان الثور من الهتهم الرئيسية ، فكانوا يعبدونه وهو حى ، فاذا مات حنطوه وزينوه بالذهب كالملك واحتفلوا بدفنه احتفالا مهيبا . ولم يكن قدماء المصريين منفردين فى ذلك ، وانما شاركهم فيه الاشوريون والبابليون وهما شعبان عريقان ايضا . ولم يقتصر قدماء المصريين على عبادة الحيوانات اذ كانوا يعبدون أيضا الاحجار المقدسة والاشجار المقدسة والاعمدة المقدسة .

تلك هى الفجوة التى تفصلنا عن رجال ونساء تلك الحضارات الاولى ، وهى فجوة قد تتعذر قنطرتها تماما ، ذلك لان المصريين القدماء كانوا — فى تفكيرهم — اقرب منا الى الرجل البدائى برغم علو كعبهم فى الحضارة ، ولعل التعليل التالى يفسر لنا لماذا عبد المصريون القدماء الحيوانات « قبل ان يتمكن العلم من تفسير دورة حياة النباتات والحيوانات ، وقبل ان يعرف الانسان ان الحيوانات

والزواحف والطيور اجناس ، وان كانت أدنى منه مرتبة الا انها شبيهة به ، لم يكن فى استطاعته ان يحكم عليها الا من حيث علاقتها بانسانيته ، ومن ثم فان ما اثار اهتمامه هو ان هذه الحيوانات كانت جد مختلفة عنه ، وانها تملك قوى وتؤدى وظائف لا تتهيأ له . فالطائر بقدرته على الطيران ، والاسد بقوته الخارقة ، والتمساح الذى يتوارى فى النهر ويستطيع ان ينتزع ساق رجل بقضمة من فكيه والثعبان بصمته المريب وحياته المتلصصة ، وابو قردان بحكمته .. كلها انتزعت احترامه وتبجيله لانها تملك قوى خارقة للعادة لا يتمتع هو بها . ومن ثم دفعه هذا الاحترام والتبجيل الى تعظيم هذه الحيوانات ، ثم الى عبادتها

الفصـــل الثانى

رخماير يعود الى منزله

ان الغرض الذى أتوخاه من هــذا الكتاب هو وصف مختلف جوانب حياة قدماء المصريين مبوبة على قدر الامكان ، ولهذا سأعالج فى هذا الفصل موضوع الادارة والحـكم فى مصر الفرعونية

وبينما كنت أفكر فى مادة هــذا الفصل ، وقع بصرى مصادفة على صورة احد القوارب ، فخطرت لى فكرة

لقد كانت القوارب هى الوسـيلة الرئيســـية التى استخدمها قدماء المصريون فى تنقلاتهم ، ونظرا لان النيل لعب دورا هاما فى حياة كل مصرى قديم ، فان هذا المصرى القديم كان يعتقد أن معظم تنقلاته فى الحياة الثانية ستكون عن طريق الماء ، ولهذا دفن قدماء المصريين القوارب النموذجية فى قبورهم ، وتفننوا فى صناعتها حتى اصبحت شـــبيهة بالتحف الجميلة .

وكان فرعون ووزراؤه وكبار موظفيه يستعملون القوارب فى تنقلاتهم على طول نهر النيل ، وعلى طول ساحل سوريا عند زيارة مستعمراتهم .

وكان على كبار موظفى فرعون ان يستعملوا هذه القوارب عند قيامهم برحلاتهم الدورية للتفتيش على الاقاليم بالنيابة عن مولاهم الملك ، وعند زيارة الحكومات المحلية (فوماركس) التحقيق فى المسائل المتعلقة بالضرائب ــ وبالاخص لضبط حالات التهرب ــ ودراسة حالة الارض ، وقنوات الرى ، والتفتيش على الحاميات ، أو فض المنازعات القانونية .

وكانت اعمـال هؤلاء الموظفين تختلف تبعا لآمناصب التى يشـــغلونها

دعنا الان نتخيل آننا مسافرون عبر مصر فى قارب احد هؤلاء الموظفـــين . . اننـــا فى عصر الاسرة الثانيـــة عشرة (١٥٨٠ ـ ١٣٢١ ق.م.) فى عهد تحتمس الثالث ونحن نركب قارب الوزير رخماير ، وهو شخص حقيقى تعتبر مقبرته فى طيبة من أجمل مقابر هذا العهد . ومع ان هذه الرحلة وهمية ، الا انه كان من السهل جدا القيام بها آنذاك ، اذ ان التفاصيل التى سنسردها عن الرحلة مسجلة بالدقة على جدران مقبرة رخماير

قبل ان نبدأ الرحلة ، سنذكر كلمة عن أعمال الوزير . . انه الموظف الاول فى الدولة بعد فرعون ، ويتولى تنفيـــذ الجانب الادارى من اعمال فرعون دون الجانب الدينى (كان فرعون كبير الالهة أيضا) ، ويعين الوزير أربعة «مندوبين» فى كل اقليم يقدمون له تقريرا عن الحالة فى الاقليم كل اربعة اشهر . . ويتلقى الوزير تقارير مفتشى المناطق ، ويشرف على حـــدود الاقاليم ، وتوزيع الاراضى ، ويصـــدر الاوامر الخاصة بالمحاصـــيل الشـــانية والرى والضرائب المتأخرة والسرقات التى تحدث فى الاقاليم ، وشــــكاوى المحافظين المحليين

وكان الوزير يستصحب معه عددا من كبار الموظفين ، ولهذا كنا نشكل آسطولا صغيرا من القوارب اثناء هذه الرحلة النهرية من الدلتا الى طيبة عاصمة المملكة .

كان الوزير ورجاله قد زاروا بعض مدن سوريا الساحلية التى كانت تدين لفرعون بالطاعة حينذاك بعــــد الغزوات الظافرة التى قام بها تحتمس الثالث والتى أخضعت الحكم

المصرى جزءا كبيرا من سوريا الحالية واسرائيل ولبنان .. واخيرا وصل القارب الى شاطىء مصر ، فراينا على البعد مدخل النيل الخالد ، وعلى جانبيه اشجار النخيل والسنط ودلتا النيل الخضراء الفسيحة .

وعلى اثر دخول قاربنا فى احد فرعى النيل الرئيسيين سكنت الريح ، فبدا التذمر على وجوه المجدفين لان ذلك معناه استعمال المجاديف لتسيير القارب ، وكان المجدفون يجلسون فوق (دكتين) مثبتتين على جانبى القارب ونصفهم الأعلى عاريا .

اما الوزير فكان يجلس فى القمرة التى تتوسط القارب وهو يملى تقاريره ورسائله على الكتبة .. كان يرتدى معطفا طويلا من الكتان ، بينما اكسب الشعر الاسود المستعار الذى كان يرتديه وجهه مهابة وجلالا ، وكان كتبته يجلسون القرفصاء امامه وقد وضعوا ورق البردى على ركبهم

كان الوزير وكبار الموظفين هم وحدهم الذين يرتدون الشعور المستعارة ، اما البحارة فكانوا حليقى الرؤوس ، يرتدون (تنورة) بيضاء بسيطة ، وصدورهم عارية . ولقد كان النبلاء يرتدون هذه (التنورة) منذ الف وخمسمائة عام عندما بنيت الاهرامات ، الا ان النبلاء وكبار رجال الدولة مالبثوا ان تحولوا الى الاردية الطويلة ، ومع ذلك فان هناك شيئا واحدا يشترك الجميع فيه ، وذلك انهم حليقو الذقون . وهذا هو السبب فى انه كان من السهل تمييز السفينة الاسيوية التى كانت تمر بنا فى تلك اللحظة وهى محملة بالسلع . كان رجالها جميعا ملتحين . فتطلع رجالنا اليهم باهتمام ، بينما القى ربان قاربنا الى ربان السفينة السورية بالتحية بلغة غريبة فرد الاخر عليه بنفس اللغة

كان عهد تحتمس الثالث من العهود الزاهرة فى تاريخ مصر الفرعونية . فالى جانب الفتوحات العامة التى قام بها فرعون ، فانه انشأ علاقات سياسية وتجارية مع الدول الاخرى . مع امبراطورية الحيطيين ، وملوك بابليون ،وحكام امبراطورية « كريت البحرية الكبرى » .. وكان رخماير يعرف هذه الشعوب حق المعرفة لان الرسامين الذين كانوا يعدون قبره بمدينة طيبه فى ذلك الوقت كانوا يرسمون صورا تمثله وهو يتلقى الهدايا من « شعب البحر » كما كان المصريون يطلقون على الكريتيين .

وهكذا مرت بنا سفن وقوارب كثيرة تنتمى الى جنسيات مختلفة ونحن فى طريقنا الى طيبة

ومررنا بباطو التى كانت عاصمة الشمال فى العصور القديمة قبل ان يوحد مينا البلاد ، ولكنها اصبحت الان مدينة ريفية بمعابدها ومنازلها وحدائقها ، وان بقيت ذكرى عظمتها الدارسة ممثلة فى الشارة التى يرتديها الملك فى تاجه الافعى التى ترمز الى باطو .. اما الشارة الملكية الاخرى التى تظهر بجانب الافعى فهى رسم الصقر رمز نحن عاصمة مصر العليا سابقا . ومع ان ١٥٠٠ سنة مرت منذ تربع الملك مينا على عرش مصر ، الا ان تحتمس الثالث مازال يرتدى هاتين الشارتين تمجيداً لذكرى توحيد المملكتين

اننا لن نصل الى طيبة قبل ثمانية او تسعة ايام ،ونظرا لان الرحلة طويلة ومملة ، داب الوزير على العمل فى ساعات النهار المبكرة . وفى ساعات الليل المبكرة ، بينما كان يقضى الساعات التى تتوسطها فى النوم . وكنا كلما هبط الليل نلقى مراسينا عند مدينة ساحلية ونقضى الليل فى ضيافة احد الموظفين المحليين بها .

اننا الان فى الصباح المبكر ، ونحن نخلف دلتا النيل وراءنا وقد أخذ الوادى الاخضر العريض يضيق ، وهاهى الصحراء الداكنة تقترب من الجانبين . ومن الان الى ٣٠٠ ميل قادمة لن تختفى صحراء ليبيا وصحراء الغرب عن أبصارنا .. وهناك على البعد ، ومن ناحية اليمين ، توجد الاهرامات وقد اكتسبت باللون الذهبى فى زرقة سماء الصباح .. هناك أولا هرم ابو رواش ، ثم الاهرامات الثلاثة المعروفة باسم ثلاثى الجيزة ، الهرم الاكبر الذى بناه منقرع . ونظرا لانه الذى بناه خفرع ، والاصغر الذى بناه منقرع . ونظرا لانه كان قد انقضى ٣٠٠٠ عام على بناء هذه الاهرامات ، فقد راح الوزير رخماير يحدق فيها وقد سرح بخاطره

وبينما كنا ننطلق جنوبا ، ظهرت لنا اهرامات اخرى عند الافق ، زاوية العريان ، وابو صوير . وسقاره .. وفى سقاره كان الهرم المدرج الكبير يرتفع فى الجو شامخا متحدثا عن عظمة ايمحوتب المهندس المعمارى فى عهد زوسر الذى حكم مصر قبل خوفو ، كما بنى سنفرو هرما يبعد عن سقارة عدة أميال الى الجنوب . وكان الوزير رخماير يرى هذه الاثار فيتذكر تاريخ المملكة القديمة . كان يعرف ا الالف عام الماضية شهدت مشرق عهود ومغرب عهود غيرها ، والى عاصمة مصر انتقلت عدة مرات ، وان ملوك مصر القديمة كانوا يحكمون من ممفيس التى كان الوزير يرى قبابها ومعابدها امامه فى تلك اللحظة . وبعد حوالى ٥٠٠ سنة (أى فى نهاية الاسرة السادسة) ضعفت سلطة الملوك . واعقبت ذلك فترة من الاضطراب مدتها ١٠٠ عام انهارت خلالها السلطة المركزية ، وتعرضت مصر للغزو الاجنبى . الى ان كانت الاسرة الحادية عشرة فحكم مصر ملوك اقوياء من هرمونيش اولا ، ثم من طيبة بعد ذلك .. وبعد ٤٠٠

سنة اخرى غزا مصر «ملوك الرعاة» الاسيويون ، واخيرا جاء الخلاص على ايدى ملوك الاسرة السابعة عشرة المحاربين الذين طردوا الغزاة واقاموا حكما قويا . وكان تحتمس الثالث من احفاد هؤلاء الملوك الاقوياء ، فحكم مصر من طيبة التى اتخذ منها عاصمة لملكه الذى كان يمتد من السودان الى نهر الفرات .

وبينما كان الوزير يغادر القارب عند ممفيس ، اخذت الخواطر تتوارد فى ذهنه .

نعم ، لقد شهدت مصر تغييرات كثيرة منذ دفن هؤلاء الملاك العظماء فى الاهرامات التى تستطيع ان تراها على الجانب البعيد من النهر .. ان الملوك لم يعودوا يبنون اهرامات الان . ولكنهم ينشئون قبورهم فى صخور تلال طيبة . اما النبلاء امثاله فلم يعودوا يبنون مصاطب حجرية بجانب قبر مولاهم ، فهم ايضا يحفرون قبورهم فى الصخور ولكنهم لايحفرونها فى الوادى الملكى ، وانما فى مدينة الموتى على الجانب الاخر من الجبل

ومع ذلك كان الوزير يعلم ان اشياء كثيرة بقيت على حالها منذ العصر القديم . فهو مثلا يعبد نفس الالهة التى كان اسلافه يعبدونها ، ويستعمل نفس الطقوس الدينية تقريبا فان الرسومات التى يعدها الفنانون على قبره والتى تبينه وهو يتلقى القرابين ، اويشرف على مزارعه وضياعه ، او يرحب بزائريه فى احدى الولائم ، او ينثر السمك فى النيل تشبه تماما الرسوم الموجودة على جدران أسلافه الذين خدموا خوفو فى مدينة ممفيس منذ خمسة عشر قرنا

وفوق كل هذا كان نظام القانون والحكومة الذى يديره

هو نفس النظام تقريبا الذى كان متبعا فى تلك العهود السحيقة

فما هو هذا التقليد الحكومى ؟

اولا : سلطة مركزية قوية مطلقة ، فقد كان كل ما حققته مصر خلال الممالك القديمة والوسطى والجديدة نتيجة لما كان فراعين ذلك الوقت يتمتعون به من سيطرة كاملة على البلاد . فعن طريق سلطتهم المطلقة على الايدى العاملة استطاعوا ان ينفذوا الاعمال العامة ، ويبنوا الاثار التى ما زالت تثير الرهبة فى النفوس حتي الان

ثانيا : كان التحكم البيروقراطي الجامد تقليدا ، اذ كانت السلطة النهائية فى يد فرعون الذى يعين وزراءه وموظفيه وهم غالبا من رجال الاسر المالكة . ويشغل هؤلاء الموظفون مناصبهم اما بالتعيين او بالوراثة . اما الانتخاب فكان نادرا .. وتحت هؤلاء كانت هناك جيوش من صغار الموظفين والمفتشين وجامعى الضرائب والكتبة وما اشبههم . ولذلك فان من المستبعد ان تكون هناك دولة اخرى فى العالم تمتعت بنظام ادارى ممتاز كمصر الفرعونية . فقد كانت الظروف جميعها تحتم ان تكون سلطة فرعون مطلقة . واهم اسباب ذلك هو انه ــ بصرف النظر عن كنوز الذهب والغنائم التى كانت الجيوش المصرية تستولى عليها عند غزو البلاد الاخرى ــ كانت ثروة مصر تكمن فى ايدى رجالها العاملين وارضها . وكانت الارض بدورها تعتمد على فيضان النيل السنوى ولهذا كان لزاما على الموظفين ان يتأكدوا من ان الايدى العاملة منظمة ومستخدمة علي خير وجه

* * *

كانت ممفيس اقليما من سبعة وستين اقليما تتكون منها

مصر فى ذلك العهد ـ عهد المماكة الجديدة ..

وقضى الوزير الليل فى منزل المحافظ ، وقضىاليوم التالي فى مشاورات مع المحافظ حول الشئون التى يرجع اليه فيها . وقد جلس الرجلان وموظفوهما فى الردهة ذات الاعمدة التى يطل احد جوانبها على حديقة بها نافورات جميلة تقذف الماء الى علو كبير ، وطيور تغرد وهى تتنقل فوق اشجار السنط .. وكان الموظفون المحليون يجيئون ويذهبون وهم يسجدون عند الدخول ، وكان الكتبةيجلسون القرفصاء على الارض ويدونون قرارات الوزير فى اقفائف البردى .. وبدات المحادثات بنقاش حاد حول حدود الاقليم استدعى الرجوع الى السجلات القديمة . ثم انتقل الحديث الى موضوع الضرائب فقال المحافظ ان محصول العام الماضى كان ضعيفا وان الحالة تستدعى اطالة المهلة ، ولكن الوزير لم يقتنع بذلك ، وسال المحافظ هل هو واثق من ان الضرائب لم تتسرب الى جيب احد الموظفين المحليين كما حدث فى بعض المناسبات ، فاجاب المحافظ بالنفى ووعد ببحث الموضوع

واستدعى رجال الرى لابداء رايهم فى حالة الفيضان فى العام المقبل بعد ان اطلعوا على مقاييس النيل حتى يمكن تحديد الضرائب على اساس المحاصيل المتوقعة وتدبير الايدى العاملة اللازمة للزراعة .

ومضى الصباح على هذا النحو ، وانفض الاجتماع عند الغداء . وخلت الردهة من الجميع الا من الحراس الذين كانوا يتثاءبون كسلا . وكان السكون شبه مستتب الا من صوت ماء النافورات وزقزقة الطيور وتلك الاصوات الهامسة التى كانت تنبعث من جناح الحريم .. وعلى شاطىء النهر

كانت المشارب والمواخير تغص بروادها ، كما كان بحارة القارب يقضون وقتهم هناك حتى يعود مولاهم .

وجرت مباحثات اخرى فى المساء حيث اجتمع الوزير بالموظفين الذين يعينهم فرعون للاشراف على الحكومة المحلية ، وهم أربعة مفتشين فى كل اقليم ، وتشمل اعمالهم دراسة قوائم احصاء الرجال والماشيةعلى السواء . وعندما قدم هؤلاء المفتشون تقاريرهم ناقشهم الوزير فيها ليطمئن الى دقة الاحصاءات لانه كان يعلم ان بعض الفلاحين يهربون ماشيتهم عند اجراء التعداد

وهكذا كان نظام الحكم مزدوجا فى مصر : مجلس ملاك ويراسه المحافظ ، والوزير ومفتشوه الذين يراقبون احوال الاقليم . وكان على رخماير ومولاه ان يفتحا اعينهما دائما حتى لا تزداد قوة هذه المجالس المحلية او تعلن استقلالها

* * *

واستأنفنا الرحلة .. وبدات الاهرامات القائمة على ضفة النيل الغربية تمر بنا الواحد تلو الاخر . وكان الوادى يتسع فى بعض النقط ، ويضيق فى البعض الاخر ، ويلتوى فى موضع ويستقيم فى موضع آخر . وكنا نمر بالقرى المشيدة من الطين من حين لاخر . وسرعان ما اختفت الاهرامات ، ولم نعد نرى غير الصحراء . وبدأ رجالنا ينشدون وهم يجدفون ، وما لبث الوزير ان رفع راسه حينما مرت بنا سفينة قادمة من اسوان تحمل احجارا من الجرانيت زنتها ٦٥٠ طنا . وما كادت السفينة تمر حتى رأينا عددا من القوارب يستقلها بعض النبلاء الذين كانوا يصطادون الاوز ، ورايت اوزتين تسقطان فى الماء فاندفعت القوارب نحوهما لانتشالهما .

وزرنا مدنا اخرى ، ففى ابيــــدوس نزل الوزير الى البر ليقدم نذرا الى قبر أوزوريس ، وبعد عدة اميال زار مدينة صغيرة اغار عليها عرب الصحراء الغربية الرحل ونهبوها . وكان محافظها وقائد حاميتها يتبادلان الاتهـــام وينسب احدهما الاهمال الى الاخر . فوجه رخماير اللوم للرجلين ، واعتزم فى قرارة نفسه التوصية بتعيين قائد اخر للحامية مع تقوية الحامية نفســــها .

واخيرا وصلنا الى طيبـــــة ، فتهلل وجه الوزير فرحا بالعودة الى وطنه وبيته بعد غيبة طويلة .

كانت المدينة منقسمة فى الواقع الى مدينتين يفصــلهما النيل ، فعلى اليمين سلسلة من المبانى الحجرية الفخمة .. انها المعابد التى تجرى بها مراسم دفن الملوك الذين بدأوا يدفنون فى واد منعزل على الجانب البعيد من التلال . ففى هذه التلال توجد مدينة موتى شاســـمة وشاطىء صخرى امامهما ارض منخفضة نثرت فى ارجائها قبور النبلاء واثرياء طيبة . وبين الشاطىء الصخرى والنهر توجد قرى كبيرة بها منازل مبنية بالطوب النىء يقيم بها من يعملون فى مدينة الموتى : المحنطون ، صانعو التوابيت ، وصانعو اثاث المقابر ، والحجارة الذين يحفرون الصخور لانشاء القبور ، والفنانون ، والنحاتون الذين يزينون جدران المقابر . وعلى مقربة من المعابد يقيم الكهنة الذين يقدمون القرابين بانتظــام لارواح الموتى الذين يرقدون فى هذه المدينة : مدينة الاموات .

ولكنك اذا أدرت بصرك الى اليسار رأيت صورة مغايرة تماما .. صورة مدينة الاحياء . المدينة الصاخبة الحـافلة بالحركة والنشـاط . تصل اليها وتخرج منها قوارب ذات أغراض منوعة : سفن تجارية تفرغ الحبوب والمنتجــات

الاخرى ، وسفن نقل محملة بالكتل الحجرية لبناء المعابد والقبور ، وسفن اجنبية قادمة من سوريا وجزر الايونيان ، وسفن حربية . وسفينة فرعون الذهبية وسفن نبلائه .

وتناهت الى مسامعنا همهمات مكتومة ونحن نقترب من المرفأ ، ووقف البحارة وفى أيديهم الحبال استعدادا لارساء القارب ، وعندما تطلعنا امامنا رأينا بالقرب من الشاطىء جدران المخازن والجمرك والمنازل والمشارب والمواخير ومنازل الفقراء ، ومن ورائها بيوت النبلاء وكبار الموظفين بحدائقها الغناء ، وان كانت مبنية ايضا من الطين والخشب . اما المبنى الوحيد الذى شيد من الاحجار فهو معبد آمون ــ رع ملك الالهة .

وما كاد القارب يرسو حتى رأينا خدم الوزير وحرسه فى انتظاره على رصيف الميناء . وافسح الجميع الطريق للوزير بينما كان افراد الشعب الذين يمر الوزير بهم يسجدون له حتى تلامس جباههم الارض .

واستقل الوزير محفته الذهبية ومضى الى منزله فى الضواحى .

الفصـــل الثالث

المنـــــازل والاثاث

اما وقد حاولت ان اقدم للقارىء صورة تقريبية عن مصر كما كان يراها موظف كبير من الاسرة الثامنة عشرة ، فانني سأتريث قليلا لاتحدث عن التاريخ المصرى القديم ، ولهـذا سأدع رخماير الان وشأنه لاتحدث عن المنازل والاثاث أيام قدماء المصريين ، ثم اعود لمواصلة الحديث عن الوزير رخماير فى الفصـــل التالى .

ان المنزل المستقر ، اى المســـكن الدائم بأثاثه وادواته ضرورى لنمو وتقدم علوم وفنون معينة . وقد بلغ العرب الرحل ذرى لم يبلغها قدماء المصريين فى الشعر والفلسفة والرياضيات ، ولكن حتى العرب انفسهم لم يبلغوا مابلغوه من اعجاز فى الهندسة المعمارية والتصميم الا بعد ان انشأوا المدن ، ومع ان قدماء المصريين كانوا من اوائل الشعوب ــ بل لعلهم اولها ــ التى ابتكرت فن الكتابة وانتجت ادبا ، الا انهم كانوا شعبا استقر منذ امد طويل وحقق اعظم انتصاراته فى الهندسة المعمارية والنحت والتصوير ، ونظرا لانهم كانوا شعبا مستقرا فقد كانوا روادا فى ارساء قواعد فن الحـكم والادارة المدنيـــــة .

ان المناخ ووجود مواد البناء يقرران شكل مبانى الناس ، ففى اوربا الشــــمالية كان الخشب اول مادة استعملت فى البناء وذلك بسبب رداءة الطقس فى الشتاء ووجود الغابات بكثرة . فأنشأ الناس منازلهم منه عندما انتقلوا هابطين الى الارض المنخفضة تاركين وراءهم اكواخهم البدائية المصنوعة من الحجـر فى الاراضى المكشوفة عديمة الشجر ، ولـكنهم ما كادوا يتعلمـــون فن استخدام الحجر حتى بدأوا يبنون

بيوتهم به او بالطوب لضمان الوقاية مدةطويلة الامد من الريح والمطر والثلج . الا ان هذه الاحوال لم تكن تنطبق على مصر بسبب سطوع شمسها وشدة حرارة طقسها فى معظم شهور السنة وبالاخص فى الجنوب ، ولهذا كان أهم شيء هو ايجاد المأوى الذى يقى من الشمس وهواء الليل البارد . ومع ان الاحجار كانت متوفرة فى مصر ، الا ان المصريين القدماء لم يستعملوها فى اغراض البناء الا نادرا حتى بعد استقرارهم فى وادى النيل ، وانما استعملوا المادة التى كانت ولا تزال ارخص المواد حتى اليوم ، وهى الطين .

قد يبدو الطين مادة غير صالحة لبناء المساكن بالنسبة لمن يعيشون فى اجواء اكثر اعتدالا وذلك لضعف احتماله وقذارته ، ولكنه لم يكن بالنسبة لقدماء المصريين ، فقد راينا مصاطب قبور فى سقارة وبالقرب من أهرامات الجيزة مبنية من الطوب المصنوع من الطين المجفف ، وقد مضى عليها اكثر من ٥٠٠٠ سنة ، وما زال الفلاحون يستعملون هذا الطوب فى بناء مساكنهم حتى يومنا هذا وان كانوا يخلطونه بالتبن وروث البهائم لتقويته ، ولم يكونوا يصنعون سقوفا منحدرة كيلا تتراكم مياه الامطار فوقها لان الامطار قليلة فى مصر ، ولهذا كانوا يجعلون سقوف منازلهم مسطحة تبرز منها جدران غير منتظمة حتى يمكنهم الجلوس فوقها فى نسيم الليل العليل . وفى القاهرة القديمة كانت الاراضى الصالحة للبناء محدودة ، ولهذا كان كثير من الناس يحتفظون بماشيتهم فى بيوتهم ، أما سبب ترك الجدران الجانبية للمنازل غير كاملة فهو انشاء طابق علوى اذا دعت الضرورة لذلك .

وكان المصريون القدماء يصنعون من سعف النخيل حزما يربطونها بالطين ويستخدمونها كأعمدة قبل ان يتعلموا

صناعة هذه الاعمدة من الخشب او الاحجار على غرار القائم الذى يدعم الشادوف فى ايامنا هذه ، وكانت حزم سعف النخل تستخدم فى تسقيف المنازل بعد خلطها بالطين وتثبيتها فوق عوارض خشبية ، وما زالت هذه الطريقة مستعملة حتى الان فى القرى المصرية .

وكان الفناء من خصائص جميع المنازل المصرية باستثناء منازل الفقراء ، ففى بلاد كمصر تسطع شمسها دائما يكون الفناء هو المكان الطبيعى للحياة اليومية . ولذلك فانك تشاهد فى جميع المنازل النموذجية تقريبا فناء ذا جدران امام المنزل ، اما اذا كان المنزل كبيرا فانك تجد على جوانب هذا الفناء غرفا تطل عليه ، وغالبا ما تجد خزان الماء فى منتصف الفناء على غرار الفيلات التى كان الرومان يسكنونها فى بومباى .. وقد صممت منازل قدماء المصريين بطريقة تصون حرمتها ، ولذلك فان جدرانها عالية جدا ونوافذها صغيرة جدا ، وغالبا ما تكون المطلة على الفناء بلا نوافذ تطل على الخارج اكتفاء بنوافذها الكبيرة التى تطل على الفناء .

وعلى مر القرون طرأت تغييرات طفيفة على المنازل المصرية ، فأصبحت منازل النبلاء اكبر واكثر فخامة ، فحلت الاعمدة المصنوعة من الاحجار او الخشب محل الاعمدة التى كانت تصنع من سعف النخيل ، وطليت الجدران المبنية بملاط جميل ، وزخرفت بمناظر ملونة من الجص ، الا ان منازل الفقراء بقيت على حالها تقريبا .

وفيما عدا استثناءات ضئيلة ، لم يبذل المصريون القدماء جهدا يذكر لمحاولة تخطيط المدن ، فقد اتسعت مدنهم الكبرى كممفيس وطيبة خبط عشواء كما كان الحال فى لندن خلال القرون الوسطى . وحتى فى مدينة اخناتون

« الجديدة » بتل العمارنة حيث كانت الشوارع الرئيسية تتخذ شكل زاوية قائمة تقريبـــا ، الا ان الضواحى كانت مختنقة بما فيها من شبكة الحارات والممرات الضيقة المنتشرة فى انحائهـــا .

اما قصور الملوك ومنازل العظماء فكانت اجمـل وافخم بالطبع من منازل عامة الشعب . وفى الاسرة الثامنة عشرة — أى فى العصر الذى عاش فيه رخماير — بلغت المنـــازل غاية الفخامة والراحة بحيث يتعذر اضافة مزيد من التحسين اليهـــا حتى فى عصرنا هذا .

كانت المنازل لا تزال تبنى بالطوب النىء ، ولكن الجدران كانت تزخرف بمناظر اشجار ونباتات وطيـور صنعت من الجص بألوان جميلة . وقد اكتشف السير فليندر بترى بعض النماذج الرائعة لهذه المناظر فى تل العمارنة .. ومن ناحية الحجم والتخطيط كانت المنازل تختلف تبعـا لثراء المالك ومركزه ، الا ان بعض الخصائص الرئيسية بقيت على حالها .. فأولا كان هناك جدار خارجى من خلفه حديقـة كبيرة ، وبه المدخل الوحيد للمنزل ، وتوجد بجوار المدخل غرفة البواب . فاذا كان المنزل كبيرا جدا ، تفرعت من هذه الغرفة ثلاثة ممرات يؤدى احدها الى احسن غرف المنزل بأروقتها ذات الاعمدة المخصصة لاستقبال الزائرين ، وغرف أصغر للطعام والنوم . أما الممر الثانى فيفضى الى جنـــاح الحريم المنفصل عن اجنحة الرجال ، وفيه كان يقيم حريم رب الدار ، وكان الممر الثالث يؤدى الى جناح الخدم حيث توجد غرفة المائدة والمطابخ والمخـــازن . وكان عدد غرف الاسرة حوالى ١٦ غرفة علاوة على ثلاثة أروقة معمدة ، أما جناح الحريم فكان يتكون من حوالى ١٢ غرفة او اكثر وبه رواق او اكثر معمدة بينما كان عدد غرف المطبخ والمخازن

حوالى ١٤ غرفة وبه رواق للخدم . وكانت فى مؤخرة المنزل ساحة كبيرة مكشوفة بها رواق معمد ظليل ومزيد من غرف المخازن . وهكذا يتراوح مجموع الغرف بين ٥٠ و ٦٠ غرفة ليس لها غير مدخل واحد ضيق .

كان هذا هو طراز المنزل الذى عاش فيه كبار الموظفين امثـــال رخماير .

ومن هـــذا يتبين أن اسرة الموظف المصرى الكبير كانت كبيرة العدد ، ولم تكن هنـــاك غرف له ولزائريه وخدمه فحسب ، وانما كانت هنـــاك أيضا غرف لاولاده واولاد زوجاته غير المتزوجين . كذلك كانت هناك اماكن للعربات والجياد ، ومخازن للطعام ، وبدرومات الخمر . اما صوامع الغلال فكانت تبنى عادة فى الحديقـــة ، اما اذا كان المنزل صغيرا فكانت هذه المخازن تبنى فوق السطح .

الا انه ينبغى الايغيب عن البال ان قدماء المصريين كانوا يقضـــون معظم اوقاتهم خارج المنزل ، وان الغرف كانت تستعمل فى الليل وخلال شهور الشتاء فقط ، ولهذا كان الموظف الكبير يسترخى فى الساحة والحديقـــة ، نظرا لان المصريين القدماء كانوا من عشاق الحدائق ، ولعـل حبهم لها كان بمثابة تحد للصحارى المجدبة التى تحيط بهم من كل جانب .. وقد جلب المصريون الاشجار من آسيا اقلمة انواع الشجر ببلادهم . فكانت هناك اشجار الفاكهة واخرى للظل ، وكان المصريون يبنون احواضا السمك ، وكانت هذه الاحواض تحقق غايتين : الزخرفة ، وابعـــاد البعوض عن المنزل ، ويبدو ان هذا هو السبب فى عدم انتشار الملاريا بمصر القديمـــة .

اما اثاث المنازل فكان يختلف تبعا لأهمية المالك ، ولكنه

كان قليلا بصفة عامة اذا قورن بما فى منازل اوربا وامريكا من اثاث .. وكان الاثاث الموجود بمنازل الملوك والنبلاء غاية فى الجمال والفخامة ودقة الصنع . أما القطع الرئيسية فكانت الاسرة والمقاعد والمناضد وصناديق الملابس وغيرها . وقد حفظت نماذج جميلة منها فى المقابر المصرية — وبالاخص خلال الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة .

فلنتكلم عن المقاعد اولا .. كان عددها اقل مما يوجد فى المنزل الاوربى ، وآية ذلك ان المصرى القديم كان يجلس اما على الارض او نصف راكع او على اريكة ذات وسائد . وهناك صور كثيرة تبين الزائرين وهم جالسون فى هذا الوضع وقد ثنوا ركبهم تحتهم . ويبدو أنهم لم يكونوا يجلسون فى الوضع المائل عند تناول الطعام كما فعل الاغريق والرومان .

كذلك فانهم لم يكونوا يجلسون حول مائدة طعام ، فان الصور المرسومة على جدران المقابر لا تحتوى الا على مناضد صغيرة . وفى الحفلات كان كل زائر يجلس الى منضدة خاصة عليها ادوات الطعام بينما تولى أحد الارقاء خدمته .

لقد انطوى تصميم بعض قطع اثاث الاسرة الثامنة عشرة على اسراف فى الزخرف ، ولهذا فاننى ارى ان عرش توت عنخ آمون المشهور كئيب المنظر ، مثقل بالزخارف ، ولكننى افضل مقعد الطفل الجميل المصنوع من الخشب والمطعم بالعاج الذى كان الملك يستعمله وهو غلام صغير .

كان عدد قطع الاثاث المستعملة فى المملكة القديمة ، وعثر عليها فى العصر الحديث ، قليلا جداً .. ولكن صورها المنقوشة على جدران المقابر تدل على ان هذه القطع كانت

مرتفعة عن الارض فى عصر بناة الاهرام . وأهم الامثلة على ذلك قطع الاثاث التى صنعت للملكة هيتيفراس أم الملك خوفو ، وهى عبارة عن سرير ومقعد وظلة ومقعد متحرك وقد عثر عليها فى نفق عميق بالقرب من الهرم الاكبر .

ان أسرة قدماء المصريين تثير الاهتمام . فقد كانت مرتفعة كثيرا عن الارض ، وكانت حشياتها تصنع احيانا بانحدار خفيف من موضع الرأس الى موضع القدمين . وكانت اطاراتها مكونة من اعمدة متينة عند الطرف . اما الحشيات فكانت تصنع من حصير من الحبال المشدودة وان تهيأ لها قدر من أرونة ، ويحتمل انها كانت تغطى بوسائد ، وقد قال من ناموا فوقها انها مريحة ، بل لقد ادعى بترى ان الوسائد الخشبية كانت مريحة ولكنى ارتاب فى ذلك ، كما أن صناعة هذه الوسائد من الخشب مما يحير العقول . وما زال هذا الطراز من الوسائد شائعا حتى الان فى اجزاء معينة من افريقيا ، وقد صممت بحيث تلامس العنق من اسفل بالقرب من الاذنين ، ولعل السبب فى ذلك هو ابقاء (الباروكات) الثقيلة التى كان قدماء المصريين يرتدونها بعيدة عن الفراش . وأن كان من المتعذر معرفة سبب عدم خلع قدماء المصريين شعورهم المستعارة اثناء الليل .. وقد أدعى بترى ايضا ان قدماء المصريين كانوا ينامون فى وضع مستقيم ، ولكنى لا اكاد اصدق ذلك ولا اجد له مبررا .

اما الطلاء فقد برع المصريون فيه الى درجة مذهلة .

ومن بين قطع الاثاث الهامة فى منازل قدماء المصريين الصناديق .. صناديق الملابس ، والبيانات والأسلحة وغيرها . وكانت هذه الصناديق جميلة الصنع مطعمة بالعاج وغيره . وأجمل نماذج هذه الصناديق هو ما عثر

عليـــه فى مقبرة توت عنخ آمون .. وكان قدماء المصريين يضيئون منازلهم بمصابيح زيتية ، وكانوا يصـنعون بعض هذه المصابيح من المرمر الرفيع الشـــفاف المزخرف من الداخل بالرسومات الملونة التى تظهر من الخارج عند اشعال المصباح .. وفى منازل الملوك والاثرياء كان الذهب والفضة يســـتعملان فى زخرفــة الاثاث .

لكن ماذا بشأن طعام قدماء المصريين ؟ يبـدو ان الوان الطعام التى كانت الطبقات الثرية تتناولها كانت منوعة .. ففى الرسومات التى وجدت على جدران المقابر صور تمثل مآدب ، ومن الوان الطعام الظاهرة على الموائد الدجاج والاوز واللحم البقرى . وقد ورد فى صلوات المصريين القدماءعلى ارواح موتاهم ذكر الخبز والجعـــة واللحم البقرى والاوز ، كما ذكرت عشرة انواع من اللحوم وخمسة انواع من الطيور واحد عشر صنفا مختلفا من الفاكهة . اما الاطباق المفضلة فكانت تختلف من عصر الى آخر .

وكان قدماء المصريين يصنعون الجعة من الشعير والنبيذ، ويشربونهمـا بكثرة كما تدل على ذلك الاوانى الخاصـــة بالشراب التى عثر عليها فى مقابرهم .

والان . وقد المنا بقدر لا بأس به من المعلومات عن منازل قدماءالمصريين واثاثها وعاداتهم ، فلنمض لمقابلة القوم انفسهم

الفصـــــل الرابع

الوزير يقيم حفـلا

بعد ان استراح رخماير من عناء رحلته الطويلة ، وبعـد ان قدم تقريره لفرعون ، قرر أن يحتفل بعودته الى الوطن، فأقام حفلا دعا اليه صفوة رجال الدولة وزوجاتهم واولادهم

فلنفرض اننا كنا من سكان طيبة فى ذلك العهد ، واننـا دعينا لحضور هذا الحفل .

ففى الموعد المحدد ، وبعد ان غابت الشمس وراء الافق بساعتين تقريبا ، احضر الخدم المركبة ومعها اثنان او ثلاثة من حملة المشـــاعل العدائين .

وما كدنا نستقل المركبة حتى انطلقت بنـــا فى شوارع مكتظة بالناس ، وكنا نضطر للتوقف احيانا على جانب احد الشوارع الضيقة ريثما يمر قطيع من الماشية ، وعند احـد مفارق الطرق وقفنا خمس دقائق لان فصـــيلة من الجنـد كانت تعترض طريقنا ، وكانت مكونة من جنـــود يحملون رماحا ودروعا وصدورهم عارية ، بينما تقدمهم ضباطهم .

واخيرا وصلنا الى قصر الوزير .. وعنـــدما هبطنا من المركبة استقبلنا كبير الخدم ، وكان يرتدى افخر ثيابه .. ثم سرنا فى الممر الرئيسى ومعنا كثيرون من المدعوين رجالا ونساء ، وحولنا الارقاء حتى بلغنا رواق الاستقبال الرئيسى

هانحن اولاء فى الرواق المعمد .. انه مطلى باللون الاحمر الغامق ، وبه قصبات على هيئة براعم اللوتس . وكان الضوء الهادىء المنبعث من المصابيح المرمرية يسقط على الرسومات الملونة التى تزين الجدران وهى رسومات اشجار وطيـور

ترفرف بأجنحتها بين اغصان هذه الأشجار .

وكان صدى حديث المدعوين الخافت يتردد بين جوانب الرواق . فشققنا طريقنا الى الداخل بين نســاء عاريات الاكتاف ، ورجال يرتدون شعورا مستعارة .

واستقبلنا الوزير مرحبــا ..

كان رخماير رجلا مهيب الطلعة يرتدى ثوبا مصنوعا من الكتان الرفيع المقوى مزركشا بكثير من الحلى الثمينة .

وعندما بسط الوزير يده لنا مصـافحا ، لمعت الاساور الذهبية التي تزين ذراعه .. وكانت زوجته المفضلة مريت تقف الى جانبه اذ انها كانت تشترك معه فى كثير من اعماله شأنها فى ذلك شأن زوجات كبار الموظفين المصريين .. وهى ايضا من أسرة عريقة ، ولو سئلت تايى زوجة الســكرتير الاول الجافة التى كانت موجودة وقتذاك عن رأيها فى هــذا الزواج لقالت ان رخماير احسن صنعا لان ثروة مريت اكبر كثيرا من ثروته .

لقد كانت النساء تتمتع بمركز ممتاز فى ذلك العهد لان الوراثة كانت دائما فى خط الاناث ، فحتى فرعون نفسه لم يكن ليصبح ملكا الا اذا تزوج من الوريثة الملكية .

كانت مريت سيدة جميلة فى حوالى الخامسة والثلاثين من العمر ، اى آن عمرها كان اقل من عمر زوجها بعشرين عاما ، ومع انها لم تكن رشيقة كابنتيها ، الا ان قوامها كان لا يزال بديعا ، بينما كان الثوب شبه الشفاف الذى ارتدته يكشف عن اجزاء جسمها . وكانت ترتدى بدورها شــعرا مستعارا به مئات من الضفائر التى تدلت الى قرب كتفيها العاريتين . وكانت تتحلى ايضا بأساور ذهبية حول ذراعيها

المستديرتين . اما اظفار يديها وقدميها فطليت (بالحناء) . وكان (الكحل) الذى وضعته فى عينيها يكسب هاتين العينين جمالا وسحرا .

وعلى مقربة منها وقفت ابنتاها الجميلتان ، وكانتا ترتديان ثوبين كثوبى امها .. أما كبراهما ، وهى نوفرت ، فكانت طويلة القامة ، رشيقة . تبدو عليها علامات الغطرسة ، وكانت اختها الصغرى تا - كا - أن اقل جمالا منها وان كانت اكثر لطفا وذكاء .. كانت فى السابعة عشرة من عمرها . اقصر قليلا من اختها ، مرحة .. وكان مرحها فى تلك الليلة بالذات راجعا الى ان هذا الحفل غير الرسمى سيتيح لها فرصة نادرة لمقابلة كثير من الشبان وبالاخص سنوحى ، ابن السكرتير الاول الذى كانت تميل اليه كثيرا ..

وكانت تابى ام سنوحى ، تعتقد أن تا - كا - ان خليعة وكان سنوحى يعتقد ذلك ايضا ولكن بطريقة اخرى .

ها هى تابى تقترب الان .. انها امراة رفيعة ، مزمومة الشفتين نفاذة النظرات .. وقد حيتها مرتين تحية جافة ولكنها مهذبة لانها لم تكن تشعر بأى ود من نحوها .

وتقدمت الى مقعدها .. اما مريت فبعد ان قالت لزوجها بصوت هامس : « من اين بحق الارض حصلت على هذا القرط ؟ » استأنفت الترحيب ببقية المدعوين ..

وكان يقف بجانب الوزير ابنه الاصغر كينامون ، وهو شاب جميل فى الثامنة عشرة من العمر .. أما ابناه الكبيران وهما منخفر - سنوب وامنمحتب فكانا متزوجين ، وكانا بين المدعوين ايضا ..

كان كينامون ضابطا فى فرقة الجنود المنتخبين الذين

يشكلون حرس القصر الملكى . وقد حصل على هذا المنصب بسبب نفوذ ابيه ، ولكنه كان شابا قلقا طموحا . ولهذا تملكه الضجر من حياة الخمول ، فتاقت نفسه العمــل .. فراح يبحث بين الحاضرين عن الرجل الوحيد الذى يتمنى مقابلته وسمع من ابيه انه سيحضر .. انه الجنرال امنمحاب الذى ابدى بطولة فذة فى عدة حملات اجنبية .. وكان كينامون يرجو ان يحظى بعطف الجنرال امنمحاب فيعمل على اقناع ابيه ــ وامه على الاخص ــ بنقله الى الخدمة الاجنبيــة .. ولم يطل انتظار الشــاب فقد اقبل القائد ، وكان رجلا فى الخامسة والاربعين من العمر ، قوى البنية ، اسمر الوجه ، معتدل القوام .. وابتسم القائد المضيف .. بينمــــا راح كينامون يتطلع الى ابيه بنظرة ملؤها الآهفة والامل ..

واقبل مدعوون اخرون من كبار القوم .. فكانوا يحيون الداعى وزوجته ويمضــــون آلى الغرفةالتى أعدت المأدبة فيها .. وكان من بين القادمين : عمدة طيبة وزوجته وابنه ، وحامل مروحة الملك وهو منصب كبير يعادل منصب كبير الامناء فى الوقت الحاضر ، وزوجتــه .. وكبير كهنة امون وزوجته وابنته .. والمشرف على حدائق الملك وزوجتــه البدينة اللطيفــــة .. ومعلم الملك .. وكبير الكتبة وابنه الضابط بالمركبات الملكية واسمه سنحوت وهو شاب خجول قيل انه يحب نوفرت .

وهكذا بدأ المدعوون ينتقلون من قاعة الاستقبال الى رواق معد صفت به مقاعد ذهبية ومطعمة نظمت تبعــــا لترتيب مناصب كبار المدعوين .. اما الباقون فجلسوا على الحصر المصنوعة من القش وفوقها وسائد حول الجدران الاربعة . وكانت النساء ينظمن اثوابهن الضــــيقة ويرتبن شعورهن المستعارة برشاقة ، بينما راحت فتيات الرفيق تعلقن عقودا

من الزهور حول اعناق المدعوين ، وتقدمن لكل منهم كتلة من شحم المعطر .. كان الزائر او الزائرة يضعها فى الشعر المستضار ، فلا يلبث الشحم أن يذوب تدريجيا اثناء الحفل فيطلى الوجه والعنق وتنبعث منه رائحة زكية .

وبدأت المأدبة ..

كان حول الغرفة عدد كبير من المناضد الصغيرة وضع عليها الطعام : لحم بقرى . ودجاج . وبط . وحمام . وخضراوات ومجموعة كبيرة من الخبز فى اشكال مختلفة .. وعلى مقربة وضعت اباريق النبيذ فوق حوامل معدنية ، وقد كتب على كل ابريق سنة (التخمير) . ولا عجب ، فقد اشتهر رخماير بنبيذه المعتق .. وبدأت الاكواب المعدنية تملا وتشرب ، ثم يعاد ملؤها ، والجميع يتجاذبون اطراف الحديث الودى .. وفى تلك الاثناء راح الارقاء الذكور يقدمون المشهيات للمدعوين والمدعوات .

وبدأ المدعوون ينقسمون الى جماعات .. فراح رخماير يتحدث الى الجنرال امنمحاب عن رحلته الاخيرة ، واصغى الشاب كينامون الى حديثهما باهتمام .

قال الوزير : انه تحدث الى ميراير فى اسيوط ، وعلم منه ان الليبيين قاموا بغارتهم الثالثة خلال عام واحد ، وان هجومهم حدث وجنود الحامية نيام ، فقتل خمسون جنديا وهم فى فراشهم قبل أن يتمكن الباقون من الوصول الى اسلحتهم .. ولكن المهاجمين استطاعوا الفرار ومعهم نصف النساء ومعظم المؤن .

وقطب امنمحاب حاجبيه ، وتأمل خاتمه .. ثم قال : ان ميراير بعث اليه بتقرير شامل عن الحادث ، وانه قرر نقل قائد الحامية لاهماله ، ولولا وجود بديله فى النوبة لنقل القائد عقب الحادث مباشرة ..

وعلى مقربة من الرجلين كانت مريت تتحـدث الى زوجة معلم الملك التى اخذت تعبث بعقد الداعية وتبدى اعجابهـا به ، فقالت مريت :

ـ انه من ســـوريا ، احضره زوجى من الجبل مع هذه الاساور ومجموعة من الاقمشة البديعة .

فتنهدت زوجة المعلم وقالت : لكم اود لو كان فى استطاعة زوجى ان يسافر .. ؟!

وبينما كانت السيدتان تتبادلان الحديث عن سوريا ، كان كينامون قد سئم الاستماع الى حـديث ابيه مع القائد ، فانصرف عنهما سنحـوت الضـابط فى المركبات الملكية ، الذى خدم فى حملة فرعون على سوريا ، وكان سنحوت يراقب نوفرت بلهفة ، ولهذا راح يجيب على اسئلة كينامون باقتضاب ولكنه لم يلبث ان انفجر ضاحكا حينما سأله كينامون عما اذا كانت جبال سوريا اعلى من تلال طيبة ، وقال :

ـ اوه .. اذا وضعت عشرين تلا من تلال طيبـة فوق بعضها فان ارتفاعها لن يوازى ارتفاع جبل من جبال سوريا .. انها جبال باردة بحق هوراس .. ولهذا يرتدى السوريون ثيابا ثقيلة .. ولعل هذا البرد هو السبب فى اطلاقهم لحاهم لتدفئة وجوههم .. ! ـ

وضحك كينـامون بدوره ، ولكنه كان يبـدو مريرا لانه ـ كمعظم المصريين ـ لم ير جبلا ، ولم يعرف طقسا غير طقس وادى النيل الدافىء ..

وتنهد كينـامون بعد لحظات ، وقال : لكم اود الذهاب الى ســوريا.. .. !

ثم تطلع بلهفة الى سنحوت الذى اخرج لفافة رفيعه من البردى من جيب ثوبه وقال : ما هذا ..؟

فاجابه زمياه : نعم .. فما زال ابى هائما بها ، ولكنى اعتقد انها بدات تترهل ..

ـ ساحدثك عن ذلك فيما بعد .. اوه .. حسنا .. ها قد جاءت الراقصات .. ترى هل موتارديس ما زالت فى المنزل .. ؟

فأجابه زميله : نعم .. فما زال ابى هائما بها ، ولكنى اعلاتقد انها بدات تترهل ..

وهنا تدخلت جماعة من المغنين والعازفين .. وكانوا جميعا يرتدون « التنورة » البيضاء المألوفة وقد زينوا صدورهم واذرعتهم ، وكان بعضهم يحمل الالات الموسيقية : أعوادا ، وقيثارات ، ومزامير ، وطبولا صغيرة مستديرة .. وجلس العازفون على الارض .. وبدأ عازفو المزمارينفخون فى مزاميرهم ، وبعد لحظات انضم اليهم عازفو العود والقيثار .. وآخذ الطبالون ينقرون على طبولهم بضربات رتيبة ..

وانشد المغنون اغنية لطيفةتكريما للاله امون ـ رع ، وليس من شك فى آن رخماير كان يتوقع مجىء كبير كهنة امون ـ رع فأعد له هذ هاللفتة اللطيفة سلفا ..

وعلى اثر انتهاء الانشودة ، انسحب المغنون والعازفون ليفسحوا المجال امام جماعة اخرى من العازفات الجميلات اللائى كن يرتدين سراويل قصيرة مزخرفة بالخرز . وكانت الجماعة مكونة من عازفتين وشاب وفتاة صغيرة . وبدآ الغناء والرقص ، فتقدم الشاب والفتاة الصغيرة وركع امامها

وبسط ذراعيه اليها ، فتظاهرت الفتاة انها ستهرب منه ، وهنا ادار الشباب لها ظهره ، ودفن وجهه بين راحتيه ، فأقبلت الفتاة نحوه وهى تسير على أطراف أصابعها .. فتحول ، ونهض ، وانشأ يغنى ..

كانت اغنية جميلة ، فساد الصمت الحاضرين ، وراحوا يصفقون الى المنشد وكؤوسهم فى ايديهم .. بينما انتهز بعض الشباب من الجنسين الفرصة ، فأخذوا يتعانقون فى اركان السرادق البعيدة ..

أما سنوحى .. ابن السكرتير الاول ، فكان يجلس بجوار ابويه . ومد بصره عبر الرواق الى الجماعة التى كانت تحيط بالوزير ، فرأى عينين سوداوين تتطلعان اليه بلهفة . كانتا عينى تا ــ كا ــ آت ، وعندما التقت نظرته بنظرتها حولت الفتاة عينيها عنه واخذت تعبث بزهرة لوتس كانت تمسك بها بين انامآها الجميلة .. ولكن سنوحى لم يحول عينيه عن الفتاة ..

وانتهى المغنى من اغنيته ، فصفق الحاضرون طويلا ، ولما هدأ التصفيق تقدمت زميلته المغنية وشرعت تغنى اغنية رائعة .

وبينما كانت الفتاة تردد اغنيتها ، كان السكر قد بلغ من فوزم زوجة المشرف عل حدائق الملك مبلغا عظيما جعلها تفقد وعيها وتسقط من على مقعدها .. وهنا ضج الحاضرون بالضحك ..

وحينما سقطت فوزم اسقطت معها وعاء الفحم النحاسى الذى وضع فى نهاية الرواق لاشاعة الدفء بسبب برودة الطقس ، فتبعثر الفحم المشتعل فى كل مكان . وعندئذ

اندفع الارقاء وبعض المدعوين لجمع قطع الفحم المشتعلة ، فانتهز سنوحي الفرصة ، وغافل ابويه .. واندفع نحو العامود الذى كان الوزير وزوجته وابنته تا ـ كا ـ ات يجلسون بجواره .. وكانت الفتاة قد اندفعت بدورها .. وفي ذروة الهرج .. اخذ سنوحي الفتاة بين ذراعيه وقبلها .. حدث ذلك في ثوان .. ودفعت تا ـ كا ـ ات الشاب عنها بشيء من العنف .. وعادت الى ابويها .. بينما عاد الشاب ببطء الى مقعده في الطرف الآخر من الرواق ، دون ان يدرى احد بما حدث .

ولكن ماحدث لم يغب عن عيني نوفرت اخت تا ـ كا ـ ات الكبرى التى كانت تجلس على مسافة غير بعيدة من ابويها تحيط بها جماعة من فتيات صغيرات ينتمين الى اعرق الاسر .. وكانت نوفرت قد قضت المساء كله وهي تتحدث الى زميلاتها عن الثياب والبلاط والرجال .. ولم تكن نوفرت تهتم كرفيقاتها بالرجال باعتبارهم رجالا .. وانما كانت تهتم بهم بحسب المناصب التى يشغلونها .. لانها كانت ابنة وزير من اسرة عريقة جدا .. وكاهنة الاله امون . ولهذا فانها كانت الانثى الوحيدة التى تمشي امام فرعون كلما ذهب الى معبد ملك الالهة ليقدم القرابين .. وكانت نوفرت محط انظار كبار موظفي الملك .. ومن ثم فانها قررت الا تتزوج الا رجلا عظيما لتنجب منه أطفالا يصبحون بدورهم رجالا عظماء .. ولهذا تحيرت نوفرت حينما رأت فعلة أختها تا ـ كا ـ ات .. اذ من يكون سنوحي هذا .. ؟ انه شاب جميل .. من اسرة لا بأس بها .. ولكنه معدوم المواهب كما انه لا شأن له مطلقا بشئون الدولة . لقد كان في استطاعة اختها أن تفوز بشاب متألق .. اما سنوحي .. ! ؟

وفي تلك اللحظة دخلت الراقصة موتارديس يحيط بها

عدد من الفتيات الجميلات العاريات الا من غلالات رقيقة لففنها حول اعناقهن .. كما وضعن اوراق شجر حول أثدائهن وفوقها لاخفائها عن العيون ..

وصفق المدعوون .. ومالوا الى الامام فى مقاعدهم عندما تقدمت موتارديس الى منتصف الرواق ..

كانت فى حوالى الثلاثين من عمرها ، وكانت بشرتها اكثر سمرة من بشرة معظم رفيقاتها لانها كانت من دم نوبى .. وكان شعرها المستعار الطويل يتدلى فوق كتفيها فيزيد وجهها جمالا .. وبدأت موتارديس ترقص على نغمات الموسيقى ، فتتلوى وتتثنى كالافعى .. ثم سقطت على ركبتيها وأخذت تهز جسدها كله .. وهنا بدأت زميلاتها الغناء ..

وكان رخماير يراقب الراقصة وهو يكاد يلتهمها بعينيه. فقالت تايى لزوجها : ان الانسان لايكاد يصدق ان موتارديس انجبت اربعة اطفال من رخماير ..

وانتهت الرقصة .. واخذت موتارديس تتراجع الى الوراء وقد غضت من بصرها ..

وضج الرواق بالتصفيق ..

وبدأ الجميع يتهيأون للانصراف ..

وكان سنحوت قد ثمل من فرط ما احتسى من خمر .. ولكنه مال الى الامام وأعطى صديقه كينامون لفافة ورق البردى التى كان يحملها فى يده طوال السهرة .. وقال له بصوت هامس :

— ارجو ان تعطيها لنوفرت بعد انصرافى ..
وضع كينامون اللفافة فى جيبه دون أن ينبس ببنت شفة

وعندما خلا الرواق من المدعوين ، فضت نوفرت لفافة ورق البردى التى اعطاها لها اخوها ، فاذا بها رسالة غرامية ملتهبة تحمل اشواق سنحوت وتعبر عن عذابه لبعدها .

وحينما فرغت نوفرت من قراءة الرسالة ، قطبت حاجبيها وتقدمت ببطء من المدفأة المشتعلة والقت بالرسالة فيها .. وظلت تراقبها حتى تحولت الى رماد ..

واستدارت نوفرت على عقبيها ، ومضت ومعها خادماتها الى جناح الحريم ..

الفصل الخامس

المرأة المصرية

اذا استثنينا اسماء رخماير وافراد اسرته (وهى الاسماء التى عرفناها من قبر رخماير نفسه) كذا اسم امنمحاب ، فان جميع الاسماء التى ورد ذكرها فى الفصول السابقة من نسج الخيال ، ولكن ذلك لا يعنى ان التصوير خيالى بحت . لان الرسومات المنقوشة على قبور قدماء المصريين تدعم التصوير الذى قدمته للمأدبة التى وصفتها فى الفصل السابق .. اذ ان على جدران مقبرة رخماير رسوما للموسيقيين والراقصات والمدعوين وهم يحملون زهور اللوتس ويراقبون الراقصات . ورسوم الارقاء وهم يقدمون الطعام والشراب للمدعوين ..

ومما يثبت ان الابناء والبنات كانوا يحضرون مثل هذه المآدب احيانا ، رسم موجود فى مقبرة بتل العمارنة لبنات اخناتون الصغيرات ونفرتيتى وهن يجلسن بجوار مقعد ابويهما .. وهناك فى مقبرة اخرى بطيبة رسم يصور نوزم وقد جعلها الافراط فى الشراب تفرغ مافى جوفها فى وعاء يحمله رقيق .

اما اغانى الحب فورد بعضها فى اوراق البردى التى يرجع تاريخها الى عهود سابقة على العصر الذى نتحدث عنه أو لاحقة له ، ومن ثم فليس هناك ما يدعونا الى افتراض ان هذه الاغنيات لم تكن تردد فى عصر رخماير ..

رب معترض من المبتدئين فى دراسة مصر القديمة يقول انه يبدو ان النساء كن يستمتعن فى منزل رخماير بمكانة اعلى مما هو متوقع فى بلد شرقى ، ولكنى اقول لهذا المعترض انه مخطىء ، لان من اهم النواحى واكثرها انسانية فى الحياة

المصرية القديمة ، تلك الناحية التى تجعــل قدماء المصريين قريبين جدا منا ، واعنى بها حبهم الشديد لحياة الاسرة .. فقد كانت المرأة تتمتع بتكريم واحترام الطبقات المثقفة .. وهناك وثائق كثيرة تدل على ذلك ، منها النصــيحة التالية التى كتبها الحكيم بتاح ــ حوتب :

« اذا كنت رجلا عظيما ، فــكون لنفسك أسرة ، وأحب زوجتك فى المنزل » ..

« واملا معدتها ، وهيىء لها الكساء ، والعلاج اذا مرضت .. وادخل السرور على قلبها ما بقيت على قيد الحياة » .

بيد انه كان فى استطاعة المصرى القديم ان يتخذ له اكثر من زوجة ، وكان فى اســتطاعة الثراة ان يحتفظوا بأى عدد يشاءون من المحظيــات ، فقــد وردت فى مخطوطات العصر الفرعونى اشارات الى (المغنيات الجميــلات) وغيرهن من الخادمات الموجودات فى (منزل الحريم) .. ولكن الزوجة الرئيســـية كانت تتمتع دائما بالاســـبقية ، ولهذا فان الرسومات الموجودة على جدران القبور تصورها مع زوجها فى الحفــلات ، ورحلات الصــيد ، والاشراف على الضياع واستلام الخراج .. وكانوا يطلقون عليها (زوجته المحبوبة) او (حبيبته) ... وليس من شــك فى أن كثيرا من الاسماء التى كانت تطلق على النســاء تدل على فرط أعزاز الرجال لهن ، كقولهم (المفضلة الاولى) و (محبوبتى) و (زوجتى الشبيهة بالذهب) و (هذه ملكتى) .. وثمة حقيقة اخرى هامة .. وتلك انه بينما يفضل الذكور على الاناث فى بعض البلاد الشرقية (كما هو الحال فى بعض الدول العربية الان) فان الاسماء التى كانت تطلق على البنــات فى مصر القديمة تدل على انهن كن يعاملن كالذكور سواء بســواء .. وبعض

هذه الاسماء رقيق الغاية مثل (حاكمة ابيها) و (جميلة كأبيها) .. ولعل اكثرها رقة هو اللقب الذى اطلقه اب على ابنته بعد موت امها وهو (خليفتها) ..

وتوجد بليون بهولندا رسالة على ورق البردى كتبهاارمل الى زوجته المتوفاة وافرغ فيها حبه بطريقة تمس شغاف القلوب برغم انقضاء ٣٠٠٠ سنة على كتابتها . فبعد ان ماتت زوجته ، سقط الزوجالثاكل فريسة المرض . ويبدو ان كاهنا او ساحرا قال له : ان السبب فى نكبته هو اهماله الميتة « غاضبة من زوجها وان عليه ان يكتب لها ان الزوجة الميتة « غاضبة من زوجها وان عليه ان يكتب لها رسالة لاسترضاء روحها الحزينة » .. ويبدو ان الزوج كان رجلا طيب القلب فاستجاب لهذه النصيحة القاسية ، وكتب رسالة طافحة بالالم والحب قال فيها :

« اى اذى الحقته بك حتى اجد نفسى فى هذه الحالة التعسة ؟ ماذا فعلتلك اذن حتى تغادرينى على هذا النحو بغير ان الحق بك ضرا .. ؟ لقد تزوجتك وانا صغير ، وبقيت معك ، وعينت فى جميع انواع الوظائف .. وبقيت معك .. وانا لم اتخل عنك او اسبب لك اى حزن .. هل تذكرين يوم ان عينت قائدا لمشاة فرعون وفرقةمركباته ، واحضرتك ليسجد الجميع لك ، فقدموا لك مختلف انواع الهدايا .. وعندما دهمك المرض ، ذهبت الى كبير الاطباء فأعد لك الدواء ، وفعل كل ما اشرت به .. ؟ وحينما اضطررت لمرافقة فرعون فى رحلته الى الجنوب ، كانت افكارى كلها معك .. وقضيت تلك الشهور الثمانية وانا لا افكر طعام او شراب ولما عدت الى ممفيس استأذنت فرعون وهرعت اليك ، وحزنت عليك حزنا عميقا مع جميع افراد أسرتى .. ؟ »

ان هذه الرسالة تدل على ان الزوجة ماتت عندما كان يخدم فرعون خارج البلاد ..

ومن الناحية الأخرى ، يجب ان نبتعد عن الاسراف فى تصوير الناحية العاطفية فى علاقات الاسرة عند قدماء المصريين فمن الجائز أن كاتب هذه الرسالة كان رجلا مخلصا ، الا أنه من المحقق انه ما كان ليقتصر على زوجة واحدة لو استطاع ان يتزوج غيرها ، اذ ان ملوك الفراعنة ونبلاءهم كانوا يحتفظون بحريم كبير مثلما يفعل بعض امراء الشرق الآن .. وكما سبق أن اشرنا . فان هناك رسوما تفصيلية على معبد « آى » لحريم صاحب المنزل ، وتصور هذه الرسوم خصيا تبدو عليهم علامات الملل يقفون أمام غرف النساء ، بينما ظهرت هؤلاء النساء بداخل الغرف يتزين ويتجملن أو يتدربن على الرقص والغناء للترفيه عن مولاهن .. ومن المحتمل أن معظم هؤلاء النساء كن من الرقيق .. ولهذا لم يشعرن بأى تحقير من مراكزهن ، بل الواقع ان أية امرأة منهن كانت تشعر بتكريم عظيم اذا «حظيت بعطف مولاها» . وكان الاولاد والبنات الذين تنجبهن هؤلاء النساء يربون فى الحريم .. الا انه كان من المحتمل أن اولاد الزوجة الرئيسية هم أصحاب الحظوة والأسبقية . كذلك لم يكن للارقاء والمحظيات اى مركز قانونى .. كما كان يمكن طردهن فى اية لحظة ..

يرجع المركز السامى الذى كانت النساء « المحترمات » تحتله فى مصر القديمة الى مبدأ سيادة الام الذى قامت عليه الاسرة .. فجميع الاراضى كانت تورث لحظ النساء من الأم الى الابنة .. فاذا تزوج الرجل بوريثة فانه يتمتع بدخل املاكها طالما بقيت زوجته على قيد الحياة ، أما اذا ماتت ، فان ملكية الارض تؤول الى ابنتها وزوج ابنتها .. وكان هذا

النظام متبعا بدقة فى الاسرة المالكة مما يوضح لنا لماذا تزوج كثير من الفراعنة اخواتهم بل وبناتهم .. وفى حالات كثيرة كان الطابع الرسمى هو الطابع الغالب على هذه الزيجات .

ولهذا كان فرعون يتزوج ابنته الطفلة فى بعض الاحايين .. وفى كتاب « مصر العظيمة » كتبت مرجريت موراى : « ان فرعون كان يعمل على تأمين مركزه بالزواج من الفتاة التى ستؤول اليها ثروة زوجته بعد موتها ليضمن بذلك الاحتفاظ بعرشه ، ذلك لان العرش كان يؤول الى حظ الاناث » .

ان عادة امتلاك النساء للثروة تفسر لنا كثرة زيجات كليوباترا .. فقد تزوجت اولا من اخيها الاكبر فتوطد بذلك حقه فى العرش ، فلما مات تزوجت كليوباترا من اخيها الاصغر الذى حكم بحق هذا الزواج .. ولكن هاتين الزيجتين لم تثمرا اولادا ، وعندما غزا قيصر مصر ، كان عليه ان يتزوج كليوباترا ليجعل جلوسه على العرش قانونيا فى أعين الشعب .. وبعده جاء مارك انتونى الذى ارتقى العرش نتيجة لزواجه من كليوباترا .. وقد انجبت كليوباترا ابنا من قيصر وابنة من انتونى .. فلما سقط انتونى وجاء اوكتافيوس كان هو ايضا مستعدا لزواج هذه الملكة المزواجة ، ولكن كليوباترا كانت حصيفة .. فآثرت الموت انتحارا ..

لم تكن صلة الرحم عائقا للزواج فى مصر القديمة ، فكثيرا ماتزوجت الملكات اخوتهن ، كما تزوج الملوك بناتهن فى بعض الاحايين مثلما فعل سنفرو ورمسيس الثانى وامينوفيس الرابع (اخناتون) . وقد فعل هؤلاء الفراعنة ذلك للمحافظة على نقاء الدم الملكى وللاحتفاظ بالارث بداخل الاسرة الحاكمة . الا انه من المحتمل ان هذا النظام كان أقل شيوعا بين عامة الشعب .

لقد ادى نظام توريث الثروة للنساء الى منح المرأة المصرية سلطة عظيمة . ولذلك كتب بترى يقول انه من الممكن تتبع الاسلاف عن طريق الاناث بسهولة اكثر من تتبعهم عن طريق الذكور . فقد كان الاب « شاغل المنصب » فقط ، اما الام فكانت رباط الاسرة . وكان الامر كذلك بالنسبة للاملاك ، فأيلولتها الى الام كانت بحكم العادة .

ان عقود الزواج التى عثرنا عليها تدل على ان حقوق النساء كانت محترمة تماما .

ففى عقد يرجع تاريخه الى عام ٥٨٠ بعد الميلاد — وان كان الارجح أن نصوصه استقيت من العقود السابقة . تعهد الزوج بأنه اذا ترك زوجته ، سواء لكراهية او لانه فضل امرأة اخرى عليها ، فان عليه ان يعيد اليها بائنتها مع منح حصة من جميع املاك الاب والام للاطفال الذين حملتهم

وفى عقد آخر لاحق لهذا ، وجدت السطور التالية : « اننى اعترف بك زوجة ، فاذا أهملتك او اتخذت لى زوجة اخرى غيرك ، فانى اتعهد بأن امنحك (وهنا ذكر مبلغا من المال) .. وينص نفس العقد على ان نصف املاك والد الزوج الذى وهبته له امه و «جميع ما ال اليه منها» يصبح ملكا للزوجة مع مايستتبع ذلك من حقوق ..

وكان الطلاق سهلا فى حالة فشل الزواج ، وفى مثل هذه المناسبات ، كان الزوج يعلن على رؤوس الاشهاد انه تخلى عن زوجته ، ويتعهد فى الوقت نفسه بالانفاق عليها ، وكذلك كانت الزوجة التى تريد الطلاق تدفع لزوجها تعويضا كبيرا

وليست هناك ادلة على أنه كانت هناك اية مراسم

دينية للزواج ، اى أنه كان عقدا مدنيا بحتا ، ولكنه ينص على فرض غرامة باهظة على من يفسخه .

وكمـا هو الحال فى معظم الدول ، وفى معظم الاوقات كانت الاعمال الرئيسية التى تؤديها المراة فى مصر القـديمة هى حمل الاطفال وتدبير المنزل . اما الوظائف الاخرى القليلة التى كانت مفتوحة امامهن فهى اعمال الكاهنات والقابلات والراقصات والنادبات ، وكان على الفتيات الراغبات فى ان يصبحن كاهنات أن يتعلمن الاناشيد والرقصات المقدسة ، ولكن هذا العمل لم يكن عملا دينيا بالمعنى الدقيق ولذلك لم تكن هؤلاء الفتيات مرغمات على التبتل

ان الرسوم التى توجد على جدران المقابر لا تبين لنـا الا زوجات وبنات الاثرياء ، اما نساء وبنات عامة الشـعب فاننا لا علم عنهن الا النزر اليسير ، فنحن نراهن احيانا فى رسوم المقابر وهن يعملن فى الحقول او فى جمع فضـلات الحصـاد . وهناك صورة تبين فتاتين تشد احداهما شعر الاخرى ، او ترقصن لمولاهن أو يندبن عند موته . وهناك رسوم تصور نساء يطحن القمح فى المجرشة الحجرية مثلما تفعل بعض نساء الفلاحين الان .. وهكذا كانت حيـاة الفلاحات شاقة نمطية لايقطعها غير الوضع ، على العكس من نساء وبنات النبلاء والاثرياء اللاتى كن يستمتعن بكل اعزاز ورفاهية

الفصل السادس

الاحبة والاصدقاء

ليس من الصعب أن نصور التشابه بين الحياة فى مصر القديمة والحياة فى العصر الحديث ، الا انه لا مفر لنا من الاعتراف - اذا أردنا التزام الامانة - بأن عمل المحامى او الادارى المصرى لم يكن شبيهها تماما بعمل زميله فى العصر الحديث ، او ان حياة الجندى المصرى القديم الذى اشترك فى الغزوات كانت شبيهة بحياة الجندى الامريكى فى كوريا ، او الجندى البريطانى فى الملايو .. الا ان هناك ناحية واحدة هامة فى حياة قدماء المصريين مشابهة تماما للحياة فى الوقت الحاضر .. ونعنى بها : الحب .. فان رقة الشعر المصرى والعاطفة المصرية مازالت قادرة على تحريك القلوب ولو ان كتابها وقائليها قد تحولوا الى تراب منذ الاف السنين

ان تا - كا - اتا وسنوحى مثلا لم يكونا ليستطيعان التلاقى الا نادرا ، وكان لقاؤهما دائما تحت اشراف ابويهما ولكن الشباب يستطيع ان يجد ابدا وسائل التلاقى .. اذ ان القصائد التى وصلت الينا تكشف عن المام المصريين القدماء بالحب .. ولكننا سنفترض الان ان الحبيبين كانا متصلين ولنتصور أن تا - كا - اتا كانت تستقبل بعض صديقاتها فى منزل ابويها .. وانهن يتمددن تحت شجر الجميز بجوار بركة ظليلة .. وان بعض الفتيات الارقاء يقدمن لهن الطعام والشراب ، بينما تغنى اخريات وترقصن .. ها هى « تا - كا - اتا » فى ثوبها الكتان الجميل ، وحول عنقها عقد من الزهور ، تتمدد على الارض وقد استندت الى احد مرفقيها وراحت تستمع الى اغنية « زهور الحديقة » وقد سرحت بخاطرها وتصورت طيف سنوحى امامها

وحينما تنتهى الاغنية تبدى المستمعات تقديرهن ، وتسرع بعض الارقاء فيملان كؤوس النبيذ للمدعوات ، ثم تشرع مغنية اخرى فى ترديد اغنية اخرى فيها توسل المحبوب وتمجيد لخلقه وسجاياه

فلندع هؤلاء الفتيات فى سرورهن ومرحهن لنلقى نظرة بداخل منزل سنوحى .

لقد تعلم سنوحى ــ شأنه فى ذلك شأن الشباب المصرى المثقف ــ كيف يقرأ . ولهذا فاننا نراه منهمكا فى تأمل لفافة من ورق البردى .. انه يستعد للحصول على لقب كاهن ، وليس من شك فى ان اباه الراقد على الفراش يعتقد ان سنوحى منصرف الى دراسة واجبات الكاهن ، ولكن لو اتيح له ان يطلع على محتويات لفافة البردى لانفجر غاضبا

ذلك لان سنوحى كان يكتب قصيدة غزلية تغنى فيها بحب « تا ــ كا ــ ات »

لكن مهما يكن من الامر ، فان جميع شباب طيبة من الجنسين لم يكونوا ينفقون وقتهم فى كتابة قصائد الحب او قراءتها او الاستماع الى اغانى الحب فى الحدائق .. فان كينامون ابن رخماير مثلا استطاع ان يحصل على موافقة ابيه على اشتراكه فى جماعة للصيد مع صديقه سنحوت وعدد من الشبان النبلاء . وكانت الجماعة قد خرجت منذ عدة ايام للصيد فى الصحراء وراء تلال طيبه . وضربت الجماعة خيامها خلال الليلتين الماضيتين فى الصحراء . وكانت تسير فى النهار ، وها هى قد وصلت الان الى المكان الذى كانت تأمل فى ان تجد فيه حيوانات الصيد . اذ كان المعروف ان الاسود واللبؤات تسكن فى هذه المنطقة . ولكن سنحوت ابدى شكه فى العثور عليها . وقال :

ـ سيكون من حسن حظنا ان نعثر على عدد قليل من الغزلان والوعول هنا

اما كينامون فكان اكثر تفاؤلا . ولكنه لم يكن متلهفا على الصيد قدر لهفته على الحديث الى سنموت الذى كان يرى فيه مثله الاعلى للبطولة .. فعندما طلع النهار . وبدات اشعة الشمس تكسب رمال الصحراء لونا احمر ، انتظر الصديقان بالقرب من الحافة المنخفضة ، بينما راح الكشافون ينشئون اسوارا حول المنطقة التى سيدفعون حيوانات الصيد بداخلها .. وجلس الشابان على الارض قبالة بعضهما ، وراح كينامون يبعث بقوس سنحوت الكبير ويبدى اعجابه به بعد ان علم ان صديقه حمل هذا القوس معه الى سوريا وكان خدمهما يقفون بالقرب منهما وهم يحملون جعبات مملوءة بالسهام

قال كينامون : قال ابى أن فرعون سيعود فى الربيع الى الارض التى يعيش آهلها فى الجبال ، فارجو ان يقوى امون ذراعه

فأومأ سنموت براسه ، وابتسم . ولكنه لم يتكلم

فسأله كينامون : لماذا تبتسم ؟

ـ لان لسكان الجبال الهة قوية

ـ ولكن آمون انتصر عليها !

ـ لقد انتصر منخفر أيضا ، ولو لم يكن جنديا عظيما لما استطاع امون مساعدتنا فضحك كينامون وقال : يحسن الا تدع ابى يسمعك وانت تقول هذا الكلام

ـ او نوفرت ؟

ـ لن تفهم نوفرت معنى قولك

ـ ولكنها كاهنة ؟!

ـ نعم . بيد انها لم تحترف الكهنوت الا لان ابى اراد ذلك .. انها لا تهتم بشيء او بأحد غير نفسها

ـ انك تقسو على اختك يا كينامون

فأجاب كينامون : اؤكد لك انك تضيع وقتك سدى . الاتعلم انها احرقت قصيدتك العصماء ؟ فانبعث سنموت واقفا ، واخذ قوسه من كينامون ، وعلق جعبة سهامه فى كتفه

ثم قال وهو يثب فوق الحافة الرملية يتبعه كينامون : انهم قادمون ..

ومن بعيد تناهى الى سمع الصديقين نباح الكلاب ، وصيحات الكشافين العالية .. فانتظر الصيادان وزملاؤهما على الحافة ، وظللوا عيونهم بأيديهم ليقوها وهج الشمس .. والى جانب كل صياد وقف خدمه على استعداد لان يقدموا له جعبة سهام جديدة عند نفاد سهام الجعبة التى معه وفجأة ، برزت غزالتان من قلب الضباب ، وهماتعدوان بسرعة فى طريقهما الى الفخ الذى نصب لهما . فأمسك سنموت بقوسه ، وركع على احدى ركبتيه ، وجذب السهم الى الوراء . وقبل ان يتمكن من اطلاقه ، اطلق كينامون سهما ولكنه طاش . فلعن ابن الوزير نفسه ، وتهيأ لاعداد سهم جديد ولكن سنموت سبقه واطلق سهمه ، وفى الحال سقط الغزال الاول صريعا واثار سقوطه زوبعة من الرمال وصاح سنحوت يحث صديقه على اصابة الغزال الثانى

ولكن كيناموں أخطأ ثانية ، فضحك صديقه وقال له يجب ان تجيد التصويب احسن من ذلك فى سوريا

واسرعا يهبطان المنحدر ومعهما زملاؤهما ، وهم يسرون سحابة من الرمال تقبل نحوهم بسرعة هائلة . وانفرجت هذه السحابة فجأة — فكشفت عن جماعة كبيرة من الوعول والغزلان والارانب المذعرة .

وانطلقت السهام كالمطر من كل جانب فسقطت سبع غزلان ، وتعثر وعل مصاب فى مؤخرته فأسرع كيناموں واطلق عليه سهما اصابه لاول مرة

وفجأة ، سلم سنموت قوسه وسهامه لخدمه وقد بدا عليه التبرم وقال :

— لقد سئمت الصيد ، فلنعد الى المعسكر

وتبع كيناموں صديقه دون آن ينبس ببنت شفة

وفى الخيمة قال سنموت : ان الاشاعة التى سمعتها صحيحة ، فان منخفر سيعود الى سوريا بعد شهر او اقل

— وهل ستذهب معه ؟

— نعم ، وانت ايضا

وقبل ان يتمكن كيناموں من الأعراب عن شكره الصديقه اسرع سنموت يقول :

— أن اباك يعلم بذلك ، وكان سيبلغك هذا النبأ فى الوقت المناسب ، فقد استطاع القائد ان يقنعه بنقلك الى فرقتى ، ولكنى احذرك من ان الحياة التى ستحياها من الان محفوفة بالمخاطر والاهوال ، واذا اردت ان تفلت بجلدك من الموت المحقق فان عليك ان تجيد التصويب اكثر مما فعلت اليوم

الفصل الســابع
جيش فرعون

ليس فى نيتى ان اتتبع سنموت وكينامون آلى سورياالان السجلات المصرية القديمة بقيت حتى الان لتقدم لناصورة واضحة دقيقة للحرب فى آسيا ، ولهذا فان الاجدى ان تركز اهتمامنا فى الحـــديث عن نظام الجيوش الفرعونية ليس فقط فى عهد تحتمس الثالث ، وانما فى العصور التى سبقته والتى تلتــه ، وارى أن ابدا بتسجيل الشــكر لمستر ر.ا. فولكنر لانّ معظم المعلومات التى سأقدمهاهنا مستقاة من بحث نشره فى المجلد ٣٩ من مجلة الاثارالمصرية

عندما كانت نذر الحرب تتجمع فى الافق فى عصرالمملكة القديمة ، كان « الموظفون المحليون يطالبون بتشكيل وقيادة حصة من القوات الخاضعة لسلطتهم » .. ومن ثم كان الجيش كامل التعبئة يشتمل على عدد كبير جدا من الكتائب المحلية على هيئة الميشيا ، مكوّنة من رجال سبق ان ادوا الخـدمة العسكرية فعـلا او حصلوا على قسط معين من التدريب العسكرى . وبعبارة اخرى كان نظام التجنيـد قريب الشبه من النظام الاقطاعى الـذى انتشر فى اوروبا اثناء القرون الوسطى .. اما الوحدة العسكرية الوحيـدة التى ذكرت فى النصوص الخاصة بالملـكة القديمـة فهى « الاورطة » بيد ان حجمها غير معروف ، الا انه اذا كان صحيحا ما ورد فى النصوص من أن الجيوش كانت تتكون من عشرات كثيرة من الالاف ، فلا ريب فى ان الوحدة كانت فى حجم الفرقة .

كانت مساوىء هذا النظام هى انه يضع سلطة كبيرة فى

ايدى الحكام المحليين ، ومن ثم فعندما ضعفت سلطة الملوك كما حدث فى الفترة التى أعقبت اضمحلال المملكة القديمة اشتبك نبلاء الاقاليم مع بعضهم فى حروب طاحنة ، فعمت الفوضى .. بيد انه من المحتمل انه كان هناك جيش صغير عامل تحت قيادة الملك مباشرة ، والا لتعذر على فرعون ان يعالج الطوارىء المفاجئة كالغزو او التمرد ، ولذلك فان الارجح ان الملك كان يحتفظ بقوة صغيرة من الرجال المدربين يستطيع ان يستخدمها بمجرد حدوث اى طارىء

توجد على جدران مقابر المملكة القديمة بسقارة مناظر معارك توحي بان القوات المصرية كانت حسنة التدريب عالية الكفاية . ومن المحتمل ان طلائع القوات كانت تشكل من جنود نظاميين مدربين يدعمهم مجندون

وكان الملوك يعمدون الى استدعاء الرجال وحشدهم من جميع انحاء البلاد اذا ظهرت نذر الحرب فى الافق فى عصر المملكة القديمة .

وينبغى الا يغيب عن البال أن القوات كانت تحشد ايضا فى وقت السلام لا لاداء المهام العسكرية فحسب ، وانما ايضا لتنفيذ المشروعات العامة كالعمل فى المحاجر .. وكان لقب « جنرال » يطلق احيانا على الموظفين الذين ينفذون اعمالا ليست ذات طبيعة عسكرية ، فمن الجنرالات المعروفين — من الاسرة الاولى الى الاسرة السابعة — مثلا ، كان هناك :

ثلاثة قادوا الحملات الى سيناء . وثلاثة تولوا حملات المحاجر الى وادى الحمامات ، وواحد كان مسئولا عن طره ومن الاخرين ارى الامير كامتجنيت ، ابن الملك العزيزى

الخدمة خارج البلاد ، بينما تولى اخر اسمه الخسرديني رئاسة هيئة كاملة من المجندين الجدد . ومن المحتمل ان نالثا مقره معبد فيله كان يتولى قيادة القوات النوبية المساعدة .

ان الضابط الوحيد المنتظم الذى ذكرت رتبته فى نقوش المملكة القديمة هو « الجنرال » او « قائد الجيش » ، بيد انه من الواضح انه كان هناك ضباط آخرون مساعدون ، وليس من العسير تمييز هؤلاء الضباط الاخرين فى رسوم المعارك الموجودة فى مقابر سقارة ، اذ ان هؤلاء الضباط كانوا يحملون علامات تميزهم عن جمهرة الجنود العاديين

كانت الخدمة العسكرية ــ التى لم تعرف فى اوربا الا منذ قرنين تقريبا ــ نظاما معمولا به فى المراحل المبكرة من تاريخ مصر . فمنذ خمسة الاف سنة كان الشبان المصريون فى سن الخدمة العسكرية يستدعون لاداء هذه الخدمة فى المناطق المحلية ، ثم يعودون بعد ذلك لاعمالهم العادية ، ولكنهم يبقون تحت الطلب اذا دعته الضرورة لاستدعائهم وكانت الدولة تقدم لهم الغذاء والكساء اثناء فترة الخدمة العسكرية ، ولكننا لا نعلم هل كانوا يحصلون على اجور ام لا .

ومن الوظائف الهامة التى اضطلعت بها القوات فى عصر المملكة القديمة وما بعدها تعيين حاميات للقلاع ونقط الحراسة الموجودة على حدود مصر ، والطرق المؤدية الى اسيا والنوبة .

واثناء المملكة الوسطى ــ اى بعد انتهاء فترة الفوضى التى اعقبت سقوط المملكة القديمة ، حصل حكام الاقاليم على سلطة كبيرة ، وسمح لهم بالاحتفاظ بجيوشهم الخاصة .

ومن المحتمل انه كان على هؤلاء ان يقدموا قوات معينة للعمل فى خدمة الملك . ويقول فولكنر انه كان هناك جيش عامل يتكون من المجندين .

تدل النقوش المتخلفة من المملكة الوسطى على انه كانت هناك رتب عسكرية الى جانب رتبة « الجنرال » فمثلا كان هناك « قائد قوات الصاعقة » و « مدرب القوات غير العاملة » . ويحتمل ان « قوات الصاعقة » كانت مشكلة من رجال مختارين للقيام بأعمال الهجوم . اما رجال « القوات غير العاملة » فكانوا اصلا رجالا غير عسكريين ، ولكنهم سرعان ما اصبحوا « حرس الملك الخاص » الذى يرافقه كلما خرج للحرب .

وكان « كتبة الجيش » يتولون الجانب الادارى فى الجيش ، وكان عدد هؤلاء الكتبة كبيرا ، وكثيرا مايصادفهم الانسان كلما اطلع على سجلات الحملات . وكانت لهم ايضا درجات مختلفة ، فهناك الكاتب الصغير الذى كان يعنى بشئون الفصيلة الصغيرة ، والكاتب الكبير الذى كان يدير شئون كتيبة كاملة . وكانت اعمال هؤلاء الكتبة شبيهة باعمال « صول التعيين » فى الجيوش الحديثة مع فارق واحد هو ان كتبة الجيوش الفرعونية كانوامسئولين ايضا عن تجنيد الشبان المطلوبين للخدمة العسكرية

الا اننا لن نستطيع الحصول على صورة كاملة لنظام الجيش المصرى القديم الا اذا درسنا سجلات المملكةالحديثة

ففى عصر الأسرة الثامنة عشرة اصبح المصريون الشعب العسكرى الوحيد والاول فى ذلك الحين ، ويمكن مقارنة هذا الموقف بانتصارات الجيش الفرنسى عقب اندلاع نار الثورة الفرنسية وما يتبعها منظهورنابليون . فبعد سقوط

المملكة المصرية الوسطى ، غزا مصر البرابرة الاسيويون ، الهكسوس او « ملوك الرعاة » ولكن امراء طيبة المحاربين استطاعوا طرد الهكسوس من مصر . وانشأ خلفاؤهم الاسرة الثامنة عشرة . وبانشائها بدا مجد مصر العسكرى .. ولقد صمم ملوك هذه الاسرة وهم احمس وامينوفيس الاول وامينوفوس ومن تبعهم من ملوك يحملون اسم تحتمس ، على تأمين بلادهم ضد خطر الغزو من ناحية اسيا فى المستقبل . فتغلغلوا فى فلسطين وسوريا وانشأوا حامية قوية هناك . وكان اعظم هؤلاء الملوك شأنا تحتمس الثالث الذى يعتبر بحق « نابليون مصر القديمة » لانه بسط سيطرة مصر حتى نهر الفرات .

كان فرعون هو الرئيس الاعلى للجيش ، وكان هو الذى يتولى قيادته عادة فى الميدان .. وكان الوزير — وعمله شبيه بعمل وزير الحربية فى الوقت الحاضر — يصدر اوامره الى مجلس الحرب الذى يتولى مساعدته . اما فى الميدان ، فكان الملك يستشير كبار ضباطه قبل الاشتباك فى المعارك . وفى ذلك الحين . كان الملك يحتفظ بجيش عامل كبير منظم على اساس قومى من جنود نظاميين . وقد كتب فولكنر يقول :

« كان جيش الميدان العامل مقسما الى فرق ، كل واحدة منها وحدة كاملة من وحدات المشاة وقوات العربات . ويبلغ عددها حوالى ٥٠٠٠ رجل . وفى قاديش « وهى معركة مشهورة فى عهد رمسيس الثانى » كان قواد الفرق من الامراء وان كان فرعون نفسه تولى قيادة احدى هذه الفرق . وكانت تطلق على هذه الفرق اسماء الهة المملكة »

وكان الجيشان الرئيسيان هما جيش المشاة وجيش العربات ، ومن الحقائق الغريبة انه لم يكن هناك فرسان . ولعل ذلك راجع الى ان الجياد كانت حينذاك من سلالات

ضعيفة بحيث لم تكن تتحمل الاعباء العسكرية الضيقة . بل ان العربة نفسها كانت سلاحا جديدا نسبيا ادخله الهكسوس الغزاة ، واستعملت بكثرة على غرار استعمال الدبابات المصفحة فى الجيوش الحديثة لتكون ستارا يتقدم المشاة خلفه

فعند نشوب المعركة كانت العربات هى التى تتحمل عبء الهجوم ، بينما يزحف المشاة خلفها لاستغلال نجاح التكتيك او لعرقلة تقدم العدو اذا ساء الموقف . وكانت العربات تهاجم العدو ايضا فى لحظة النصر لتحول هزيمته الى كارثة وليس من شك فى أن الرسوم التى نراها على المقابر والتى تمثل فرعون وهو منطلق بعربته فوق اشلاء القتلى والمحتضرين تمثل هذه المرحلة .

كانت العربات خفيفة ، خالية من اليايات . ذات عجلتين وقد عثر على بعضها فى مقابر قدماء المصريين « كمقبرة توت عنخ آمون » وكان رجلان يستقلان كل عربة ، احدهما للقيادة والاخر للقتال . وكان الاخير مسلحا باقواس وسهام ورماح ودرع ، وبذلك كان قائد المركبة — كما وصفه هومر فى شعره — يتعرض للخطر الداهم لانه لم يكن مسلحا ..

اما عمله فكان توجيه العربة بحيث تتخذ أحسن وضع يتيح لزميله المقاتل اطلاق سهامه ، وقذف رماحه . وكانت كل عربة يجرها جوادان . وكان النظام المتبع يقضى بتقسيم العربات الى مجموعات تتكون كل مجموعة منها من ٢٥ عربة . وكان هناك ايضا « ملاحظو — حظيرة » مسئولين عن سلامة الجياد .

اما اسلحة المشاة فكانت مختلفة . فالبعض مسلح بالاقواس والفئوس والهراوات ، بينما كانت هناك كتائب

من رماة الرمح المسلحين بالدروع . وكان طول هذه الرماح ٩ اقدام احيانا ، ومن المحتمل انها كانت تستعمل على غرار استعمال الحراب فى القرون الوسطى . وكانت هناك « فصيلة الصفوة » من المشاة وتعرف باسم « شجعان الملك » او « الشجعان » . وكان واجب رجال هذه الفصيلة قيادة الهجوم . وكانت هناك بعد ذلك قوات خاصة لخدمة الحاميات وال « مدجاى » المشهورين وهم شرطة الصحراء .

كانت الحمير هى وسيلة النقل المستعملة فى الجزء الاول من الاسرة الثامنة عشرة . ولكن تحتمس الثالث ادخل العربات التى تجرها الثيران لنقل القوارب التى استخدمت لعبور نهر الفرات . وفيما بعد اصبحت العربات التى تجرها الثيران جزءا من مهمات الجيش المصرى .

وفى هذا الوقت ، اصبح الجيش المصرى نظام هرمى للرتب العسكرية . فكان هناك اسم خاص للجنود معناه « اعضاء الجيش » وكانت اصغر رتبة الضابط هى « اعظم الخمسين » ثم « قائد المائة » وفوقه « حامل العلم » .. وفى عهد رمسيس « اواخر عصر المملكة الحديثة » اصبح « حملة الاعلام » قوادا لكتائب تتكون كل منها من ٢٠٠ رجل من المشاة . وكانت هناك ايضا اسماء تميز المتطوعين عن المجندين ، اذ يبدو انه اصبح من المستطاع حينذاك احتراف الجندية .

وفوق قائد الكتيبة يوجد « ضابط قوة » ثم « قائد قوة » الذى يحتمل انه كان يتولى قيادة لواء يتكون من عدة فصائل .. وهناك بعد ذلك « قائد الجيش »

ومن المحتمل ايضا انه كان هناك موظفون اداريون مثل « كاتب الجيش » و « كاتب المشاة » و « كاتب الحشد » و « كاتب التوزيع »

الفصل الثامن

فن الكتابة

كان المصريون القدماء قوما عمليين ، ولهذا كان التقدم الباهر الذى احرزوه فى الهندسة المعمارية والنحت والفلك والحساب وليد المنفعة الخالصة اساسا ، ولكنهم بعكس الاغريق — كانوا اقل حبا للاستطلاع ولهذا لم تهمهم المعرفة لذاتها لانهم كانوا يحبون كل ما يعود عليهم بالفائدة . ومع ذلك فان الاغريق مدينون للمصريين القدماء بالشيء الكثير، فقد وجدوا فى مصر رصيدا هائلا من المعرفة العملية النافعة التى ، وان لم تكن علما بالمعنى المفهوم من الكلمة . فانهما كانت — على الاقل — مادة العلم الخام .

لقد برع المصريون ايما براعة فى الرياضيات العالية لانهم كانوا قوما عمليين كما اسلفنا ، وليس ادل على ذلك من ضخامة مبانيهم وبالاخص الاهرامات التى كان بناؤها الماما تاما بالرياضيات العالية .

ولم يقتصر نبوغ المصريين على الرياضيات وانما امتد ايضا الى الفنون ، ولكن روائع فن النحت التى تذهلنا لم تخلق لذاتها — بل ان صانعيها لم يكونوا يرغبون فى ان تقع عين بشرية على الكثير منها ، لان بعضها يصور بدقة وبطريقة واقعية حياة الميت . ولهذا وضع فى غرف المقبرة البعيدة من الانظار باعتبارها — اى المقبرة — المنزل الذى تسكنه الروح .. وهناك ، علاوة على ذلك . المناظر الجميلة المصنوعة من الجص او المرسومة التى تثير بهجتنا حينما تقع عيوننا عليها فى المقابر والمعابد ، تلك المناظر التى تصور لنا بوضوح جميل حياة المصريين القدماء اليومية . وهذه

المناظر لم توضع فى اماكنها للمتعة او الزينة ، ولا للاعلان عن ثراء الميت واهميته ، وانما كان الغرض منها سحريا ، وهو ضمان حصول الموتى فى حياتهم الثانية على كل ماكانوا يملكونه ويتمتعون به فى حياتهم الحاضرة : فللضابط الميت جنوده . وللسيد الثرى مزارعه وضياعه ، فضلا عن كميات هائلة من الطعام والذبائح .

وقد بدأت الكتابة فى مصر القديمة بطريقة عملية ايضا .. كانت اداة عمل ، وسيلة يستطيع الانسان ان يتصل عن طريقها بالاخرين بغير أن يضطر لمقابلتهم او التحدث اليهم ، وسيلة لتدوين المذكرات والحسابات وتسجيل الاحداث وكتابة النصوص الدينية .. وكانت الكتابة الهيروغليفية قد تقدمت كثيرا فى عصر الاسرة الاولى اى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م. وتوجد الامثلة الاولى للرسوم والعلامات التى تتشكل منها اللغة الهيروغليفية محفورة او مطبوعة على بعض الاوعية الحجرية وغيرها من الادوات .. وكانت الرموز الهيروغليفية مكيفة ومنسقة بطريقة تجعل فى الامكان قراءتها من اليمين الى اليسار وبالعكس ايضا بل ورأسيا كذلك تبعا لاحتياجات طابع الزخرفة .. وطوال الثلاثة آلاف عام من التاريخ المصرى استخدمت الكتابة الهيروغليفية فى جميع الاغراض الدينية كالحفر على جدران المعابد والمقابر وعلى جميع انواع التماثيل . ولكنها كانت صعبة الاستعمال فى اغراض الحياة اليومية لشدة تعقيدها ، ومن ثم ابتكر المصريون القدماء رسوما مختصرة للكتابة العادية اطلق عليها اسم « الهيرية » ، وكانت هذه اللغة مطابقة للغة الهيروغليفية ولكن رموزها كانت اسهل كتابة

لقد استقيت معظم الفقرات التى اوردتها فى هذا الكتاب من وثائق مكتوبة باللغة الهيرية على ورق البردى ، وساعد اختراع وسيلة الكتابة هذه فى وقت مقتدم على تقدم لغة

الكتابة المصرية ، ولكن المصريين القدماء لم ينهجوا نهج البابليين الذين استعملوا الطفل المخبوز كمادة للكتابة اذ توفرت لهم مصادر غير محدودة من اعواد البردى التي تنمو بكثرة هائلة على حافة نهر النيل . وفي اول الامر ، كان ساق النبات يجرد من طبقته الخارجية ، ويقطع الى شرائط طويلة توضع جنبا الى جنب . بينما توضع شرائط اخرى بالعرض على احدى وجهى الشرائط الطولية ، وتضغط اللوحة كلها بعد تجفيفها ، وبهذه الطريقة امكن تسجيل « كتب » على لفائف من ورق البردى بلغ طول بعضها احيانا ١٠٠ متر ، وفيما بعد صدر المصريون لفافات ورق البردى الى اجزاء أخرى من العالم كاليونان مثلا . والواقع اننا مدينون لمصر القديمة بالمحافظة على الادب الاغريقي نظرا لان لفافة البردى كانت هي الوسيلة التي حفظ بها الادب الاغريقي ونقل من العصور المبكرة الى حوالي القرن الثاني او الثالث بعد الميلاد

وفي مرحلة مبكرة من التاريخ المصرى تطورت الكتابة التي ابتكرت أصلا لاغراض المنفعة ، الى فن .. ذلك لأن المصريين — كجميع الشعوب المتحضرة — اكتشفوا ان للكلمات سحرا خاصا ، وسرعان ما ظهر بينهم شعراء وكتاب قصص وروايات استخدموا اللغة لا لغرض الا تهيئة المتعة.

وسنقدم في هذا الفصل طرفا من نثر هؤلاء الكتاب ..

من المحتمل انه قبل اختراع الكتابة بوقت طويل ، كان هناك شعر وقصص شعبى يتناقله الناس بالفم كالشعر الحماسي الذى انتج في النهاية الياذة واوديسيا هومر ، الا انه حتى بفرض أنه كان للمصريين شعر حماسي قبل الأسرة الاولى ، فان هذا الشعر لم يعش طويلا . وان كان هناك

بعض قصص خرافية عن مغامرات سحرية سجلها الكتاب فيما بعد ولهذا كان لا بد أن تكون لها جذور فى طفولة الجنس المصرى . واذا اتخذنا من الادب الذى بقى حتى اليوم مقياسا ، فاننا نستطيع أن نحكم بأن المصريين القدماء كانوا يحبون القصص والسحر والمعجزات . لان ما خلفوه من قصص لا ينطوى الا على قدر ضئيل من الحقيقة والواقع .

ومن اقدم القصص التى سجلها المصريون القدماء قصة « الملك خوفو والساحر » . وخوفو طبعا هو بانى الهرم الاكبر فى عام ٢٥٠٠ ق.م. والقصة نفسها قديمة جدا ، ولو ان الوثيقة التى نقل ايرمان القصة عنها ترجع الى عصر الهكسوس اى بعد مضى ١٠٠٠ عام على حوادث القصة .

وها هى القصة :

« طلب الملك خوفو من اولاده ان يسردوا عليه قصصا عن عظماء سحرة الماضى . فبدأ الابن خفرع (بانى الهرم الثانى) يسرد له تفاصيل حدث عجيب وقع ايام الملك نبقه ، وهو احد اسلاف خوفو .. قال أنه كان هناك ساحر اسمه يوبا اونر ، وأن زوجة هذا الساحر كانت خائنة . وارتاب الساحر فى زوجته وفى انها تخونه مع رجل كان يقضى وقتا معها فى « بيت الملذات » فى بحيرة يوبا اونر . وصنع الساحر تمثالا لتمساح من الشمع طوله سبعة اشبار وقال لكبير خدمه « عندما يجيىء المواطن المعروف لك ويستقل الزورق جريا على عادته اليومية ، الق التمساح فى البحيرة خلفه »

فأخذ كبير الخدم التمساح ومضى لشأنه

وبعد قليل بعثت زوجة الساحر وصيفتها الى رئيس الخدم الذى كانت البحيرة تحت اشرافه لتقول له :

« عليك بوضع الاثاث فى منزل البحيرة لاننى سأذهب

للاقامة فيه » ، فنفذ كبير الخدم الامر واثث المنزل بأفخر الرياش . وبعدئذ انتقلت الزوجة ووصيفتها الى المنزل لتتخذ منه وكراً لملذاتها ومجونها .

فاذا كان المساء جاء العشيق تبعا لعادته اليومية ، فأحضر كبير الخدم التمساح الشمعى والقاه فى البحيرة خلف العشيق ، فتحول الى تمساح حى طوله سبعة أشبار وامسك بالعشيق .

ولم يذهب الساحر الى قصر الملك سبعة أيام متوالية كان العشيق خلالها فى الماء لا يستطيع افلاتا او فكاكا . وعندما انقضت الايام السبعة استفسر الملك عن الساحر ، فاستدعاه رجال القصر ، فقال للملك « هلا تفضلتم جلالتكم وجئتم الى منزلى لتأمل الاعاجيب التى تحدث فى عهدكم ؟ » وذهب الملك معه ، وأستدعى الساحر التمساح من الماء وقال له « هات العشيق معك » فتقدم التمساح ومعه العشيق . فقال الملك « انه تمساح مخيف » ! . فمال الساحر فوق التساح والتقطه فتحول الى شمع فى الحال . . ! »

ونهض الامير بوفر بعد ذلك ليتكلم ، وحدث الملك خوفو عن اعجوبة حدثت فى عهد جده الملك زوسر وكان بطلها كبير السحرة زازماونخ .

بدأت القصة حينما شعر الملك بالملل وراح يبحث عن تغيير ، فجمع ضباط القصر وطلب منهم ان يقدموا له اقتراحات فى هذا الشأن . ولكن الجميع لم يستطيعوا ارضاءه ، واخيرا استدعى زازما ونخ الذى قال له :

« اذا ذهبتم جلالتكم الى بحيرة المنزل العظيم ، وأمرتم باحضار قارب ملكى . وجميع السيدات الحسناوات

الموجودات فى حريم القصر ، واركابهن فى القارب فستشعرون بالتغيير عندما ترون كيف تجدف هؤلاء السيدات جيئة وذهابا فى البحيرة ، وعندما ترون منظر أعشاش البهجة فى بحيرتكم ومنظر الحقول والشواطىء الجميلة فسينشرح قلبكم »

واستصوب الملك الفكرة ولكنه قرر ادخال تحسينات عليها .

قال الملك الساحر : سأفعل ذلك .. سأستقل القارب ، فأحضر لى عشرين مجدافا من الابنوس الموشى بالذهب أحضر لى عشرين سيدة من ذوات السيقان الجميلة ، والفتنة الخلابة ، وارسل الى القارب عشرين شبكة لترتديها هذه السيدات بدل الثياب .

ونفذ الساحر أمر الملك . وأخذت النساء تجدفن جيئة وذهابا فى البحيرة ، فانشرح صدر الملك وطابت نفسه .

وحدث ان فقدت ضفائر زعيمة النساء وتشابكت فى المجداف فسقط من اذنها قرط من معدن الملكيت على شكل سمكة فى الماء . فسكتت المراة ، وكفت عن التجديف . كما صمتت النساء الجالسات بجانبها وكففن بدورهن عن التجديف ، فسألها الملك : « لماذا لا تجدفين ؟ » .. فأجابت « انني اريد وعاء زيت الشمر لاصلح ما فسد من زينتى » وادرك الملك ان المراة متألمة لضياع قرطها ، فأمر باستدعاء كبير السحرة . فجيىء به على الفور

وأوضح الملك الموقف للساحر ، وفى التو اجرى الساحر العمل الذى اجراه موسى فيما بعد عندما عبر بنو اسرائيل البحر الاحمر ولكن على نطاق ضيق .

تمتم الساحر ببعض تعاويذه ، ووضع جانبا من ماء البحيرة فوق الجانب الاخر . فوجد القرط معلقا فى قطعة من آناء خزفى محطم . فالتقطه وقدمه للمراة . اما الماء ـ

وكان عمقه ١٢ شبرا فى منتصف البحيرة — فاصبح ارتفاعه اربعة وعشرين شبرا بعد ان وضع جزء منه فوق الجزء الاخر (وبعبارة اخرى ان الساحر طوى الماء كما يطوى الثوب) . وهنا عاد الساحر يتمتم ببعض تعاويذه السحرية فعاد الماء الى حالته الاولى فى البحيرة

ان هذا جزء فقط من القصة ، ولكنه يكفى لتبيان ما فى هذه القصص من روعة وعمق خيال ، فهى — فى رأيى — لا تقل جمالا عن قصص الف ليلة وليلة وبوكاشيو .

و « هناك قصص اخرى رائعة لا يتسع لها المجال هنا كقصة سنوحى التى جرت حوادثها فى عصر الأسرة الثانية عشرة وغيرها . .

كان هذا هو نوع القصص الذى يحب المصريون المثقفون سماعه او قراءته ، وهناك مؤلف شامل لهذه القصص وضعه إيرمان بعنوان « الأدب عند قدماء المصريين » .

الفصل التاسع

العمـــال والصناع

تحدثنا حتى الان عن الطبقة المتعلمة التى كانت تحـكم مصر : كبار الموظفين ، ورؤساء الجيش . والمحامين . وجامعى الضرائب . والكهنة . والكتبة .. ولقد تركت هذه الصفوة المثقفة سجلاتها المكتوبة فى قبورها ، ولكن عامة الشعب ـ وهم صانعو ثروة مصر . سواء اكانوا بنائين او فنانين أو صناعا او عمالا فى الحقول او فى الورش .. كل هؤلاء التزموا الصمت فلم يتحدثوا عن انفسهم ، وما كنا لنعرف شيئا عنهم لولا كلمات قليلة سمح لهم بأن يقولوها فيما أعدوه من رسومات بقبور سادتهم ، بل ان جهابذة المهندسين الذين صمموا وخططوا الاهرامات والمعابد . واولئك الذين نظموا ودربوا القوة الكاملة الجرارة التى كانت تستخرج كتل الجرانيت الهائلة من المحاجر لتصنع منها التماثيل الضخمة ، وبناة القوارب التى تستطيع ان تنقل ٦٥٠ طنا من الجرانيت من اسوان الى ممفيس ، لم يتركوا اية سجلات مكتوبة عن الوسائل التى كانوا يستخدمونها فى عملهم . ولهذا يتساءل المرء دائما : كيف صنعوا ذلك .. ؟

من حسن الحظ ان بعض نبلاء المملكة القديمة وما بعدها أمروا بأن تنقش على جدران قبورهم رسوم تبين اعمـال خدمه الكثيرين . ومن دراسة هذه الرسوم بعناية ، وتأمل ما بقى من الادوات التى كان العمـال يستعملونها فى تلك العصور ، استطاع مؤرخو التاريخ المصرى القديم الوقوف على معلومات كثيرة عن العمال والصناع فى مصر الفرعونية . وبذلك يمكن الاجابة على السؤال السابق بشكل مرضى فى اغلب الاحايين .

ومن هؤلاء النبلاء الوزير رخماير الـذى كان يشرف ـ الى جانب اعماله الاخرى الكثيرة ـ على الضياع الكبيرة التى كانت ملحقة بمعبد آمون ، كما كان اتفيا ـ طبقـا للنقوش الموجودة على جدران مقبرته ـ الرئيس الاعلى للورش الكبيرة الملحقة بالمعهد حيث كان احد ابنائه مر ـ ى يتولى الاشراف عليها .. فلنستخدم نقوش المقبرة لارشادنا ، ولنتتبع الوزير اثناء قيامه بجولة تفتيشية .

***

لقد انقضت عدة أسابيع منذ خرج تحتمس الثالث بجيشه من مدينة طيبة للقيام بغزوة جديدة ، وتبع شبان كثيرون الملك ومن بينهم كينامون ابن رخماير وصديقه سنموت . وبرحيل فرعون أصبح الوزير مسئولا عن تصريف شئون البـلاد ، وبذلك تضاعفت أعماله . ففى الامس . استقبل رخماير ـ بالنيابة عن فرعون ـ رسـلا قدموا من بلاد وكفيتوى (كريت) وسوريا والنوبة ، جاءوا لتقديم فروض الطاعة ، والهدايا لفرعون مصر . وجلس رخماير ساعات طويلة على المقعد الموشى بالذهب ومن حوله رجال الحاشية. بينما اخذ الرسل يمرون امامه وهم يحمـلون الهدايا على اكتافهم . وراح الكتبة يسجلون اسماء وعدد القطع والهدايا التى احضروها من بلادهم بحسب ترتيب تقديمها . وكان كل رسول يقدم منتجات بلاده ، وان لم تخل جميع الهدايا من كمية كبيرة من الذهب . واعقب ذلك تقديم عدد كبير من الارقاء ، وكان معظمهم من النساء والاطفال للعمل فى مصانع النسيج بالمعبـد .

وفى اليوم السابق على استقبال الرسل ، تولى رخماير

رئاسة المحكمة العليا . وكان يوما شاقا للغاية نظرا لكثرة المنازعات ، ولشدة حرارة الطقس فى ذلك اليوم .

وكان رخماير رجلا عادلا اتخذ له شعارا فى القضاء « ان يحكم بين الناس بالعدل سواء اكانوا فقراء ام أغنياء » . ولهذا كان يلاقى متاعب جمة اذا كان احد طرفى النزاع شخصا من صحاب النفوذ فى البلاط الملكى ، وبالاخص لان له اعداء يكيدون له . ومع ذلك فانه كان يبذل قصارى جهده لاحقاق الحق ونصرة المظلوم .

واما اليوم ، فكان مقررا ان يزور الوزير وحاشيته ورش معبد آمون لتفقد سير العمل فيها .

كان الوزير يحب هذه الزيارات للترفيه عن نفسه من ناحية ، ولانه كان من المعجبين بالاعمال اليدوية من ناحية اخرى .. وكانت له آراؤه الخاصة فى الكيفية التى ينبغى ان يؤدى كل صانع عمله بها ، ولكن كثيرا ما كانت هذه الاراء تتعارض مع آراء ابنه مرى المشرف على الورش شأنه فى ذلك شأن الابناء الذين يعتقدون دائما انهم يفهمون احسن من آبائهم .

واذ وقفت العربات امام ابواب المعبد الضخمة ، هبط الوزير وحاشيته منها يتبعهم حملة المراوح .

كانت الورش كبيرة جدا ، تنبعث منها ضوضاء تصم الاذان اختلطت فيها اصوات المطارق باصوات المناشير والمثاقب . وامتلأ جو المكان بمجموعة مختلطة من مختلف الروائح بين رائحة نشارة الخشب والزيت وصهر المعادن والعرق .

واستقبل مرى اباه .. وكان شابا مديد القامة ،

يرتدى شعرا مستعارا أسود اللون . ويحمل عصا صغيرة تدل على منصبه .. ورافق اباه فى تنقلاته من غرفة الى اخرى . فدخل الجميع اولا مصنع الحلى حيث كان بعض العمال يصوغون ويصقلون حبات من معدن الملكيت واللازورد وغيرها من الاحجار شبه الكريمة . وكانوا يستخدمون مثاقب دقيقة من البرونز لعمل الثقوب .. وعلى (بنك) آخر وضعت قطع صغيرة من الزجاج بنظام معين لصنع تلبيسة رائعة لغطاء صدر من الذهب .

ولم تكن هناك اية احجار كريمة كالماس او اللوؤلؤ .

والتقط رخماير غطاء الصدر الذهبى وتأمل «التلبيسة» ثم قال ساخرا !

ـ زجاج !! لقد كان اسلافنا يستعملون الفيروز والجمشت يا بنى ! ياله من عصر !

ثم مضى فى طريقه الى الغرفة التالية ، حيث كان الصناع يصنعون اوعية من الاحجار باستخدام مثاقب حجرية ثقيلة

وزار الوزير ومن معه بعد ذلك ورشة النجارين . وكان الصناع قد صنعوا بعض القطع ليفحصها الوزير : يد مروحة، وناووسا مطعما ، وتمثالا من الابنوس به تركيبات ذهبية وله راس على شكل صولجان من الفضة .

وبعد ان تأمل رخماير هذه القطع ، راح يراقب الصناع وهم يعملون . فرأى فى طرف الغرفة رجلين ينشران كتلة من الخشب ليصنعا منها الواحا مستعملين فى ذلك « الاسافين » لابقاء الشق مفتوحا .

وعلى مقربة كان نجار آخر ينشر الالواح فى اطوال مناسبة

لصناعة احدى الخزائن . ولو تأملنا الادوات التى يستعملها هؤلاء النجارون لوجدناها مماثلة تماما للادوات التى يستعملها النجارون اليوم باستثناء المطرقة (الشاكوش) الذى لم تكن له يد ..

وكان احد الرجال يذيب صمغا فى اناء وضع فوق نار مشتعلة ، بينما كان آخر يجرش مادة الطلاء بقطعة من الحجر الرملى .

ورأى الوزير أيضا رجلين يطليان صندوقا كان سيوشى بعد ذلك، فراح يتأملهما عن كثب . واخيرا ابدى اعجابه بعملهما

وكان الوزير لا يزال يجرى بأصابعه فوق ذقنه وهو شارد الذهن عندما ناداه ابنه من طرف الغرفة الآخر قائلا :
الا تريد رؤية عمال المعادن يا ابى ؟

— بالطبع ؟

والواقع ان الوزير كان كارها رؤية ورشة المعادن فى ذلك اليوم لانه كان يوما حاراً جدا ، ولهذا كان يريد ان يتجنب دخول غرفة الافران والمعادن المنصهرة . ولكنه كان مضطرا الى رؤية عملية صب المحاور البرونزية الكبيرة التى كانت تعد يومئذ لبوابات المعبد الجديدة .

وهكذا دخل الوزير الغرفة التى كسا الدخان جدرانها بطبقة سوداء ، وتبعه رجال الحاشية الذين كانوا يسيرون بحذر شديد خشية تلوث ثيابهم ناصعة البياض .

كانت الضوضاء عالية بحيث اضطر مر — ى الى رفع صوته عند الحديث ليعلو على صلصلة المطارق . والى جانب الضوضاء كان هناك زئير عال متقطع منبعث من الافران العديدة التى كان يقف بجوار كل فرن منها رجل شبه

عار يدير منفاخا بالقـــدم .

وراح الجميع يجففون العرق الذى اتسال على جباههم وقد بدت عليهم علامات الضيق .

ورأى الوزير قالبا للمحاور مصنوعا من الطفل وموضوعا على الارض ، وبالقرب منه اباريق كبيرة مملوءة بمخلوط من النحاس والزنك بنسب صحيحة . وكان بالقالب سبع عشرة فتحة لصب المخلوط منها . وتعتبر هذه العملية من ادق العمليات لان اى تراخ فى الصب يقضى على العملية كلها

وبدأت عملية الصب .. فرفع الرجال الاباريق المحتوية على المخلوط المنصهر ، وصبوه من فتحات القالب فى نظام بديع يدل على الخبرة وطول المران .

وابدى الوزير ارتياحه وانصرف الجميع وهم يحمدون الله على انتهاء زيارة ورشة الحدادين .

وفى غرفة اخرى شاهد الوزير طارقى المعادن وهم يعملون فى صياغة الذهب والفضة ، ولاحظ الوزير بارتياح كيف كان الذهب والفضة يوزنان قبل صياغتهما وبعدالصياغة ، لضمان عدم سرقة شىء منهمـا ، فأومأ براسه للدلالة على استحسانه لهذه الخيطـة .

وهكذا انتهت زيارة الوزير وحاشيته لورش ، وانصرفوا الى الميناء للاشراف على افراغ كتل هائلة من الحجرالجيرى كانت قد وصلت من ممفيس للتوسع فى بناء معبد آمون ـ رع بناء على امر فرعون جريا على العادة التى كانت متبعة ، وهى ان يحاول كل ملك يرتقى العرش توسيع معبد ملك الالهة وتحسينة بشكل لم يسبقه اليه احد من اسلافه .

وكان احد القوارب وطوله ١٥٠ قدما يربو بجانب

رصيف الميناء ، بينما كان قارب آخر يقترب من الرصيف وقد وقف ملاحوه على استعداد للقيام بعملية الارساء وفى ايديهم الحبال ، واستعدوا لالقاء المراسى الحجرية الثقيلة فى الماء ، بينما كان احد اللاحين يقيس عمق الماء بقصبة خشبية طويلة ..

وبقى الوزير الى ان انتهى تفريغ حمولة احد القوارب، ثم استقل مركبته ، ومضى الى منزله .

***

ان هذه الصورة المصغرة التى قدمناها والتى تقوم اساسا على الادلة المستقاة من الرسوم المنقوشة على جدران مقبرة رخماير توضح فنون العمل الذى كانت تؤديه طوائف معينة من العمال المصريين فى فترة واحدة من التاريخ المصرى القديم .

وليس من شك فى ان الصورة المشار اليها تبدو غير مكتملة اذا لم نتحدث عن بعض الاعمال والفنون التى برع المصريون فيها كبناء الاهرامات والمعابد والتماثيل ونسج الملابس

ان الناظر الى التماثيل الضخمة الموجودة فى المتاحف او فى اماكنها الاصلية والمصنوعة من كتل هائلة من الاحجار لايملك الا إن يتساءل كيف استطاع المصريون القدماء الحصول على مثل هذه الكتل دون الاستعانة بالمواد الناسفة، أو حتى بأدوات القطع الصلبة (ذلك لان الادوات المصنوعة من الحديد لم تستعمل الا فى مرحلة متأخرة نسبيا من تاريخ مصر) ، والواقع — وقد يبدو هذا الواقع بعيد التصديق — ان تلك الكتل الضخمة من الجرانيت وغيره من الصخور انتزعت من اماكنها الاصلية بضربها بكرات من

الدلريت كانت تستعمل كمطارق ، وفى بعض الاحايين كان العمال يستعملون أزاميل نحاسية لها دقماق ، ولكن نظرا لان النحاس معدن لين ، ونظرا لان المصريين لم يستطيعوا تقويته ، فلا بد ان كميات هائلة من المعدن كانت تذهب هباء

أما الطريقة التى استعملها قدماء المصريين لقطع كتل كبيرة من الجرانيت فكانت : فصل الكتلة الرئيسية أولا بالطرق بكمرات او مطارق مصنوعة من حجر صلب كالدلريت تمسك باليد ، ثم استخدام الاسافين بعد ذلك ، الى ان تفصل الكتلة المطلوبة عن امها فى النهاية .

وكانت هذه الكتل تستعمل اما فى البناء او فى صناعة التماثيل والاعمدة الضخمة ..

وقد استخدم المصريون القدماء انواعا عديدة من الاحجار : الحجر الجيرى ويوجد فى مناطق تمتد من القاهرة الى ما وراء اسنا ، وهو حجر صلب شبيه بالرخام . والحجر الرملى والجرانيت بأنواعه والوانه المتعددة وهى الوردى والسنجابى والاسود . وكانوا يستخدمون ايضا المرمر وبالاخص من ماتنوب بالقرب من تل العمارنة . أما المحاجر الرئيسية فكانت محاجر البازلت الذى كان يستعمل فى رصف المعابد فى المملكة القديمة وكانت موجودة فى الفيوم .

وكانت اسوان هى المصدر الرئيسى للحصول على الجرانيت اللازم لبناء الاهرامات ، الا انه كان لا بد — قبل قطع هذه الكتل — من اجراء عمليات حسابية دقيقة معقدة لتحديد حجم الاحجار المطلوبة ، حتى لا تنقطع احجار لا لزوم لها ..

لكن كيف استطاع المصريون القدماء نقل هذه الكتل الحجرية الهائلة من المحاجر الى مواضع البناء وتثبيتها فى اماكنها بمثل هذه الدقة .. ؟

لقد عالجت هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابى « فرعون المفقود » ولهذا سألمح له هنا بايجاز ..

كانت الوسائل الميكانيكية الوحيدة آلتى اتيحت للعمال فى عهد الفراعنة هى الرافعــة والدلفين .. ولكنهم لم يكونوا يعرفون البكرة ، ومن ثم لم يكن من السهل رفع الكتل الى أعلى ثم انزالها برفق فى اماكنها ..

وكانت كتل الحجر تجر على زلاقات خشبية فوق الطريق الجسرى المؤدى الى الاهرامات ، وكانت الطبقة الاولى توضع فوق الصخر البكر ، وبعد تسوية هذه الطبقة يتهيأ العمال للمرحلة التالية فيبنون مدرجا يؤدى الى قمة الجزء الاول من الهرم ، ويجذبون الاحجار الى هذه القمــة ، ثم يثبتونها فى مكانها النهائى .. واثناء العمل فى هذه المرحلة يمضى العمال فى مد المدرج الى مسافة ابعد والى اعلى ، نظــرا لان زاوية الميل يجب أن تظل ثابتة .. ويعتقد انجلباخ ان السبب فى رفع طبقة الملاط الموجودة بين الكتل لم يكن الرغبة فى تثبيت الكتل فى اماكنها ، (لان وزنها وحده يكفى لذلك) وانما لانه لم تكن هناك طريقة اخرى يمكن ان تستخدم لدفع كتلة زنتها عدة اطنان وتثبيتها بجوار اختها ، « الا ان تسبح على فرش من الملاط المبلل اللزج » وأظن ان هــذا هو الســبب فى استعمال الملاط وما يلاحظ من نعومة اعالى الاحجار بشكل غير عادى .

لا ريب ان المصريين القدماء استخدموا طرقا مماثلة فى بناء المعابد واعمدتها واروقتها ..

كانت العملية كلها عملية تخطيط دقيق ، واستخدام عدد قليل من المساعدات الميكانيكية البسيطة وتوفير الايدى العاملة بكثرة ..

ولقد لعب النقل النهرى دورا رئيسيا فى جميع عمليات البناء التى اجراها المصريون القدماء ، ولهذا كان من النادر ان ينقلوا حمولات ثقيلة على البر لمسافات طويلة ، اذ ان النيل يحد البلاد بطولها كله ، ولقد رأينا ان القوارب لعبت دورا هاما جداً فى حياة الفراعنة ، وكانت هذه القوارب تصنع فى احجام مختلفة ، حتى لقد بلغ طول بعضها ١٧٢ قدما « فى عصر الاسرة الثالثة » ، وحمولته ٦٥٠ طنا فى بعض الاحايين وكانت القوارب على انواع مختلفة . فمنها القوارب الحربية وقوارب نقل الماشية وقوارب نقل السلع واليخوت الخاصة .

وكانت هذه القوارب تصنع بدقة عظيمة نظراً لانه لم تكن توجد فى مصر أشجار تؤخذ منها الواح الخشب العريضة ، ولهذا كان النجارون يستخدمون الالواح الضيقة المأخوذة من الاشجار المصرية . وكانت اهم موارد الخشب المصرى فى ذلك الحين اشجار النبق والجميز والارز والسرو ، والاخيرتان منها استوردتا من الخارج قبل عام ٣٠٠٠ ق . م .

ولقد بلغ النجارون المصريون حدا من البراعة فى الصناعة تشهد به هذه القوارب وقطع الاثاث دقيقة الصنع التى مضى عليها اكثر من ثلاثة آلاف عام وما زالت محتفظة بمتانتها وكأنها صنعت منذ ايام .

***

اما صناعة النسيج فكانت من الصناعات الهامة طوال تاريخ مصر ، ولهذا كانت تستخدم فيها مئات آلالوف من الايدى العاملة ..

وفى ذلك قال ايرمان :

« كان العمال يبذلون قصارى جهدهم لاعداد اجمل انواع

الـكتان الناصع البياض ، ومن المحقق أنهم استطاعوا بلوغ مرتبة الكمال فى هـذه الصـناعة ، ويكفي ان ادلل على ذلك بالاشارة الى الثياب البيضـاء التى كان عظمـاء المصريين يرتدونها وبلغت من الرقة درجة جعلت فى الامكان رؤية اجزاء الجسم من تحتها .. بل لقد انتجوا انواعا من منسوجات الـكتان بلغت شفافيتها ونعومتها درجة تـعادل المنسوجات الحريرية التي نصنعها الآن .. »

ان القطن لم يكن معروفا بالطبع فى ذلك الحين ، ولهذا كانت صناعة النسيج مقصورة على الكتان . وقد عرف المصريون زراعة الـكتان منذ عهود مبكرة جدا ، وكانوا يغلونه فى اوان كبيرة جدا وجدت صورها فى الرسوم المنقوشة على مقابر المملكة الوسـطى للتخلص من القشرة الخارجية .. وبعدئذ ينظفون الكتان ويفصلونه من النفايات قبل نسجه .

وكان المصريون القـدماء بارعين ايضـا فى علاج جلود الحيوانات .. وكانوا يسـتعملون جلود الحيوانات الجميلة ، وبالاخص المنقطة ، فى صناعة اغطية المقاعد والدروع والجعب ويبدو انه كان لجلد النمر قيمة خاصة ..

لقد كان الاثرياء فقط هم الذين يستطيعون شراء ثياب الكتان الجميلة . اما الفقـراء وعامة الشعب فكانوا يكتفون بصناعة ثيابهم من المنسوجات الخشنة او جلود الحيوانات

الفصل العاشر

الطب والســـــحر

مضت عدة شهور على زيارتنا الاولى لمنزل الوزير رخماير وهانحن اولاء نعود الى المنزل الكبير مرة آخرى ، ولكن المنزل اليوم يختلف عن ذلك الجو الذى مازالت ذكراه عالقة بأذهاننا. فنحن لانسمع الآن نغمات الموسيقى التى كانت تنبعث من جناح الحريم ، وانما يخيم على المنزل صمت رهيب ، فقد انصرف الخدم الى اداء اعمالهم فى هدوء .. وها نحن أولاء نرى رخماير يروح ويغدو فى الفناء مع زوجته وقد ارتسمت على وجهيهما علامات الاسى ، ذلك لان نوفرت ، ابنة الوزير الكبرى ، مريضة بالحمى .

دعنا نتتبع الوالدين وهما يدخلان الى مخدع ابنتهما .. ان بالغرفة عددا من افراد الاسرة : تا ـ كا ـ ات ومعها زوجها سنوحى (فقد تزوجا بعد أن رأيناهما آخر مرة) ، وابن رخماير الاكبر منخفـــر ـ سونب وزوجته .. وهم يقفون على مقربة من فراش ترقد فوقه نوفرت .. أن وجه المريضـــة محتقن لامع مبلل بالعــرق . وها هى ترفــع يدها لتضعها على جبهتها ، ثم تتأوه .. وبين كل حين وآخر يهتز جسمها النحيل بعنف وتغمغم :

ـ اشعر ببرودة .. اشعر ببرودة .. !

وبالقرب منها وقف طبيب البلاط ومعه مساعدوه ، ولكنه لا ينظر الى نوفرت ، وانما يميل فوق منضدة صغيرة وضع فوقها حجاب وحبل معقود واباريق صغيرة مملوءة بالعقاقير . واخذ الطبيب يأتى حركات سحرية فوق الحجاب والحبل ، وهو يردد احدى التعاويذ بسرعة ، بينما كان احد مساعديه

يرد عليه ، وبعد قليل اخذ الطبيب الحجاب وثبته على رداء المريضة فوق القلب تماما ، ثم ربط الحبل حول جبهتها .. وبعد مزيد من حركات يديه فوق جسم المريضة .. تقدم نحو اقارب الفتاة الصامتين وأومأ اليهم برأسه فتبعوه جميعا الى الخارج .. وتركوا وصيفة نوفرت للعناية بها

وقال الطبيب : سوف يخرج العفريت منها فى مدى يوم وليلة .. اذا كان آمون رحيما بها .. !

***

وعلى بعد خمسمائة ميل .. وفى واد صحراوى بالقرب من اورنتس .. كان سنموت ضابط العربات الملكية راقدا فى احدى الخيام وهو فاقد الوعى .. فمنذ ساعات قليلة وبينما كان يقود حرس المؤخرة . وقع فى كمين نصبه له العدو فى ممر ضيق اذ سد البدو الممر بكتل ضخمة من الصخر .. ثم انقضوا على سنموت ورجاله وكانوا يسيرون على هيئة طابور غير مستعد للقتال .. ولما كانت العربات عاجزة عن المناورة اضطر الجنود الى النزول منها والاشتباك مع البدو فى القتال وجها لوجه .. وكانت معركة يائسة ابلى كينامون فيها احسن البلاء وابدى من ضروب الشجاعة والذكاء ما يجل عن الوصف ..

عند بداية المعركة تنبه العدو لسنموت وعرف رتبته من ثوبه وحامل علمه . فقرر ان يركز هجومه عليه .. وقد اصيب هو وسائق عربته بعشرات السهام التى تطايرت عند هجوم العدو .. كما قتل الجوادان وانقلبت العربة .. ووجد سنموت نفسه محوطا برماة العدو .. بينما كان الدم الذى انبثق من جروحه يكاد يعمى عينيه .. وكان سنموت قد قتل بدويين قبل ان ينقض عليه ثالث ويضربه بهراوته

ضربة عنيفة هشمت خوذته ... وسقط سنموت كما سقط كينامون الذى كان قد راى الكارثة تحلق فوق رأس صديقه فشق طريقه اليه ومعه مجموعة من حملة الحراب .. واستطاع أن يضرب البدو ، الا انه — قبل ان يفعل ذلك — كان قد أرسل عددا قليلا من المحاربين الشجعان ومعهم بعض نافخى الابواق لانذار كتلة الجيش الرئيسية .. واستطاع هؤلاء المحاربون الافلات من الكمين .. وسمع تحتمس صوت الابواق من بعيد فأوفد مجموعة كبيرة من المشاة لنجدة فرقة العربات .. وبعد معركة رهيبة هرب البدو تاركين خلفهم مائة قتيل . وبعدئذ نقل كينامون صديقه فاقد الشعور الى خيمة كبير الاطباء الذى بدأ يفحص المصاب .. بينما وقف كينامون بجواره وعلى وجهه الملفوف بالضمادات علامات القلق .. وبدأ الطبيب يجرى جراحة على ضوء المصباح الزيتى ..

لم يكن هنا سحر .. فقد نظف الطبيب أولا الجروح التى تخلفت عن السهام .. واوقف نزف الدم .. ثم حاك اللحم الممزق بعناية .. وبعد ان اعاد فحص المصاب تبين له ان ذراعه وساقه الايمن مصابان بالشلل .. ففحص السحجات الموجودة بالجمجمة وتأكد من عدم وجود كسر بها ... ولكنه ادرك أن الشلل ناتج عن ضغط على المخ .. وان عليه ان يبادر بازالة هذا الضغط ..

وكانت ادوات الجراحة موضوعة على منضدة بجوار الفراش : مباضع ملتوية ذات اشكال مختلفة .. ومثاقب . ومناشير .. والتقط الطبيب منشارا صغيرا حادا ازال به قطعة من الجمجمة .. ثم قطع الغشاء فكشف عن المخ ..

وفى رفق شديد ازال الطبيب الدم المتجمد .. ونظف

الانسجة المصابة .. ثم حاك الغشاء كما كان واعاد قطعة الجمجمة الى مكانها وثبتها جيدا بالاربطة ومجمع اللصق ..

وعندما بدات خيوط ضوء الفجر الاولى فى الانبثاق نهض كبير الاطباء واقفا .. وكان صهيل الجياد وقرع الطبول ينبعث من بعيد .. وتطلع كينامون الى الطبيب وفى عينيه نظرة استفسار فقال الطبيب :

ــ ليس فى استطاعتى ان ابدى رايا قاطعا الآن ..

ووضع يده على صدر سنموت .. ثم اردف :

ان قلبه سليم .. ومن الجائز ان يعيش .. الا انه من المستحيل نقله قبل انقضاء وقت طويل .. يجب ان يبقى هنا عدة اسابيع .. وبعدئذ يمكن نقله الى قاديش ..

وابتسم الطبيب للشاب القلق مشجعا .. ووضع يده على كتفه قال له :

ــ لا تقلق يا بنى فانه مثلكم جميعا معشر الجنود يتمتع بجمجمة سميكة ... !

***

هل هذا خيال ووهم .. ؟ كلا .. لقد كان المصريون القدماء يجرون مثل هذه الجراحات الدقيقة ، حتى قبل عصر الاسر .. فقد عثر على عدد من الجماجم وبها علامات تدل على انه اجريت لاصحابها جراحات «تربنة» . وكان المصابون يعيشون احيانا لان الكسور التأمت وتماسك العظم ..

وكان الجراحون المصريون القدماء يجرون جراحات اخرى دقيقة مماثلة كما جاء فى لفافة بردى ادوين سميث عن الجراحة التى يرجع تاريخها الى بداية المملكة الحديثة (سنة

١٥٠٠ ق. م.) وتحتوى هذه اللفافة – وتعتبر اقدم كتاب طبي فى العالم – على شرح لثمان واربعين حالة تتراوح بين اصابات فى الجمجمة واصابات فى نهاية العمود الفقرى مرتبة بنظام دقيق للغاية ..

لابد اذن ان لفافة البردى تلك كانت واحداً من كتب الطب التي كانت تدرس فى مدارس الطب المصرية ، ومن المحقق ان تاريخها يرجع الى ٥٠٠٠ سنة ماضية

وهناك لفائف بردي طبية أخرى ، كلفافة ايبرس التى تعالج الدمامل والقروح وماشابهها ، ولفافة كاهون التى تعالج الحالات النسائية ، ولفافة تشستر – بيتى التى يحتوى فصل منها على وصفات وعلاجات لامراض الشرج والاست ، ولفافة هيرستا التى تحتوى على ٢٥٠ تذكرة دواء او فصول . وهناك ايضا لفائف بردى اخرى بالمتحف البريطاني وفى تورين ، ويحتوى بعض هذه اللفائف على فصول تكاد تكون متشابهة تماما ، ويبدو انها نقلت جميعا عن مصدر واحد يعتبر ثقة

ما الذى يمكننا ان نفهمه من هذه اللفائف فيما يتعلق بمعرفة المصريين القدماء بجسم الانسان . اولا ، ان المامهم بتشريح الجسم فاق المام اى شعب اخر قديم ، ولعل ذلك راجع الى عمليات تحنيط الجثث التى كانوا يمارسونها ، فقد قال وارن دادسون عن ذلك فى كتابه «الارث المصرى» ما يلى :

« لقد هيأت عادة تحنيط الجثث الفرصة لاول مرة لمشاهدات فى التشريح المقارن ، لانها اتاحت لممارسى عملية التحنيط التعرف على وجوه التشابه بين امعاء الانسان وامعاء الحيوانات التى كانوا يعرفون كل شيء عنها من ذبح

الحيوانات وشق بطونها سواء لاغراض الطعام او التضحية ومن الحقائق التى تستحق الذكر ان مختلف الرموز الهيروغليفية التى تمثل اجزاء من الجسم ، وبالاخص الاعضاء الداخلية ، هى فى الواقع صور لاعضاء الحيوانات الثديية لا للمخلوقات البشرية . وليس من شك فى ان ذلك يدل على ان معرفة المصريين بتشريح الثدييات كانت أقدم من معرفتهم بتشريح الانسان .. ولايقل عدد المصطلحات التشريحية فى اللغة القديمة عن ٢٠٠ مصطلح مما يدل على ان قدماء المصريين كانوا يستطيعون التعرف على مجموعة كبيرة مختلفة من اعضاء الجسم وتمييزها بشكل لم يتيسر للشعوب الاقل معرفة ، الا انه كانت هناك فراغات كثيرة فى معرفتهم ولكنهم عرفوا ما للقلب من اهمية ولذلك قالوا :

« ان بداية علم الطبيب هى ان يعرف حركة القلب ، وان هناك اوعية متصلة به لكل حركة من حركات الجسم »

ولكنهم لم يفطنوا الى دورة الدم ، وكانت لديهم كلمة واحدة للدلالة على العضلات والاوردة والشرايين . ولهذا كانت الكلمة التى استعملوها للدلالة على العضلات ، وقد ظنوا ايضا ان القلب هو منبع الذكاء والعواطف ، ولم يعلقوا سوى اهمية ضئيلة على المخ ـ فيما عدا انهم لاحظوا ان الضرر الذى يصيب المخ يؤثر على عضلات معينة فى الجسم ولقد بلغت اهمية القلب لديهم مرتبة جعلت المشتغلين بعملية التحنيط يعيدونه دائما الى مكانه من الجسم قبل دفن الجثة ولو انهم كانوا يزيلون الاعضاء الاخرى ليحنطوها على حدة

رب متسائل يقول لماذا كان المصريون القدماء ـ الذين استخدموا الجراحة الدقيقة لعلاج الجروح ـ يلجأون للسحر حينما تواجههم امراض باطنية ليس لها سبب ظاهر ؟ لماذا عالجوا

الملاريا التى اصيبت بها نوفرت بالسحر ، بينما عالجوا ارتجاج مخ سنموت بحكمة ؟ ويلاحظ ايضا أنه لم يكن هنالك تمييز واضح بين الساحر والطبيب ، فقد كان مركزهما واحدا . فلو كانت اصابة سنموت بالملاريا لطبق الطبيب عليه نفس العلاج الذى طبقه زميله فى طيبة على نوفرت

- يبدو ان الاجابة هى انهم كانوا ينسبون المرض لوجود ارواح شريرة بداخل جسم المريض كلما عجزوا عن العثور على سبب واضح للمرض ، فكانت مهمة الطبيب حينئذ هى طرد الروح الشريرة سواء بالمناشدة اوبالتعزيم او باستعمال العقاقير التى كانت تنتقى أصلا لخصائصها السحرية اكثر من انتقائها لخصائصها العلاجية ، والواقع ان الطب نبع من السحر ، ولهذا فان من يقول ان السحر اختفى تماما من مهنة الطب يعتبر رجلا جريئا ، اذ اننا نطلق الان على الفكرة الاساسية فى ذلك « الثقة بالطبيب »

وهكذا كان الطبيب يخاطب الروح الشريرة الموجودة بداخل جسم المريض او يدعى ان المرض ناتج من حالة تسمم سببها الروح الشريرة التى سكنت جسم المريض . فاذا تبين ان التعاويذ معدومة الجدوى ، لجأ الطبيب الى تدبير يثير الاشمئزاز لارغام الروح الشريرة على ترك جسم المريض وذلك هو ارغام المريض على ابتلاع حشرات مسحوقة (او حية) ، وروث البهائم او انواع اخرى كريهة من المستحضرات الحيوانية أو النباتية . ولقد نقلت الكتب الطبية التى وضعها الاغريق او الرومان او العرب هذه الوصفات المصرية القديمة الى اوربا ، فظهرت فى شكل وصفات سحرية قدمها الساحرون فى العصور الوسطى وما بعدها ، بل ان بعضها مازال موجودا حتى اليوم فى شكل بدع شعبية ..

ماهى الامراض التى كانت متفشية فى مصر القديمة ؟ اننا نستطيع الحصول على كثير من المعلومات عن هذه الامراض من الرسوم والنقوش الموجودة على جدران المقابر ومن فحص المومياات . ولقد تعرف الأطباء على حالات من شلل الاطفال ، ومرض بونس ، والنكساح .. وكان الرمد الحبيبى والرمد الصديدى متفشيين فى مصر القديمة تفشيهما فى مصر الحديثة . وكذلك البلهارسيا وامراض الاسنان .

وكان بمصر القديمة اطباء لامراض العيون واخصائيون فى امراض الامعاء والامراض الباطنية ، وقد وجدت فى لفافات البردي الطبية وصفات لعلاج امراض الرئتين والكبد والمعدة والمثانة ومختلف امراض الرأس وفروتها ومن بينها وصفات لمنع تساقط الشعر ومنع الشيب . وهناك وصفات للروماتزم والتهاب الشرايين وامراض النساء

لقد اخذنا عن الطب المصرى القديم اول تجارب فى التشريح والجراحة والصيدلة وكيفية استعمال الجبائر والضمادات والمكمدات .

وهناك مواد طبية استخدمها المصريون القدماء فى العلاج ومازالت تستعمل حتى يومنا هذا فى المجال الطبى كالسنط والاينسون والشعير والخروع وزيته .. الخ .. ومن بين الشحوم الحيوانية الدم والعظم والمرارة والكبد والطحال .

من الواضح ان هذه المواد التى اثبتت بمرور آلاف السنين نجاحها الكبير فى علاج انواع معينة من الامرض ستوصف دائما لهذه الامراض ، ومن ذلك تبين ان الطب العلمى استمد تدريجيا من السحر .

الفصل الحادى عشر

البيع والشراء

كان شخصان يسيران بعد ظهر آحد الايام فى طريق طويل مملوء بالتراب ومزدحم بالناس ووجهتهما ميناء طيبة ، وكان احدهما رجلا نوبيا طويل القامة ، عريض المنكبين ، يمسك بيد غلام صغير تبدو على وجهه علامات الانفعال . وراح الغلام يشير بلهفة ذات اليمين وذات اليسار وهو يجذب النوبى ويحثه على التريث بعد ان راى رجلا ومعه قرد يؤدى بعض الحركات الغريبة فى احد الاماكن ، بينما راحت فتاة ترقص فى مكان اخر وقد احاطت بها حلقة من رجال يصفقون وهم جالسون القرفصاء على الارض . وكانت هناك مناظر اخرى كثيرة استأثرت باهتمام الغلام ، ولكن رفيقه طويل القامة كان يسير فى طريقه بعناد وبغير آن يلتفت يمينا او يسارا لانه لم يكن يجرؤ على مطاوعة الغلام .. كان هذا الغلام هو بر ـ هور ابن الوزير رخماير ، اما رفيقه فكان بواب المنزل ، وهو خادم امين طلب منه مولاه الوزير مقابلة الغلام عند باب المدرسة ومرافقته الى المنزل ، ولكن الغلام اقتنع النوبى بالذهاب معه الى السوق لتفرج عليه .

وعندما وصلا الى المرسى وقفا لمشاهدة سفينتين كبيرتين محملتين بالقمح وصلتا من الشمال منذ عدة ساعات ، وكان العمال منهمكين فى تفريغهما ، بينما جلس الكتبة يراقبون عملية التفريغ ويسجلون عدد الاجولة ، وكان المفروض ان يذهب هذا القمح الى مخازن معبد آمون ، ولكن الواقع ان ملاحى السفينة سيحصلون منه على مايوازى اجورهم ، ولهذا كان بعضهم يتناقش فى تلك اللحظة مع الباعة الذين كانوا يجلسون القرفصاء على رصيف الميناء وامامهم سلالهم

واباريقهم ، ذلك لان البيع والشراء كانا يجريان فى ذلك العهد بطريقة المقايضة .

وجذب بر ـ هو مرشده وسط الجمع ، والدفع فى هذا الاتجاه مرة ، ثم فى ذاك مرة اخرى ، فمر باحد باعة السمك وكانت تجاس امامه امراة راحت تجادله فى السعر ، وبالقرب منه جلس تاجر دهانات ، بينما راح بائع اخر يعرض كعكا ابيض للبيع ، وكان رجل يحاول ان يحصل على عدد من الكعك مقابل ياقة ، ولكن البائع رفض العرض . فقال له الرجل « اذن خذ هذا (الصندل) ايضا » .. وقبل البائع ، وبذلك ابرمت الصفقة

وكان الملاحون سمر الوجوه يقفون فوق سفنهم ويتفرجون على مايجرى عند رصيف الميناء ويلقون بكميات من البلح لفتيات صغيرات واقفات على الرصيف

لم يكن بين هذا العدد الكبير من البائعين والمشترين واحد يحصل على اجور او مرتبات مالية لان جميع المدفوعات والصفقات كانت تجرى بطريقة المقايضة ، حتى عظماء رجال الدولة كان يستخدمون نفس الطريقة فى معاملاتهم . وكان كبار الموظفين يحصلون على دخلهم الكبير فى الضياع التى يملكونها او التى يديرونها نيابة عن الملك الذى كان المالك الاكبر فى الدولة . ومع ان هذه الطريقة قد يبدو لنا انها بدائية الا انها لم تضايق قدماء المصريين او تسبب لهم اى ارتباك فى المعاملات ، ولهذا كانوا يقيمون الاسواق ويدفعون المرتبات ويقرضون بالربح (الفائدة) ويجبون الضرائب بغير ان تتبادل ايديهم اية نقود ، ومن الناحية الاخرى ، كانت قيم السلع تقاس بمعيار مشترك ذى قيمة ثابتة

ففى عصر المملكة الحديثة كان احد هذه المعايير لولبا من سلك نحاسي اسمه (يوتن) ، وقد توطدت قيمة هذا المعيار

بحيث اصبح اللولب هو الرمز الهيروغليفى الدال على اليوتن الا ان ذلك لايعنى ان اللوالب النحاسية كانت متداولة فى الاسواق وان كانت قد استعملت احيانا لحسم الخلافات البسيطة فى تقدير القيم .

وقد وضعت سلطات الضرائب قائمة حددت فيهـا قيم مختلف السلع باليوتن ، واعطتها لخادم معبد آمون للاسترشاد بها فى تقدير قيم الجزية .

وكانت هناك وحدة مصرية اخرى لتقدير القيم هى (دبن) ومعناها الاصلى (حلقة) ، الا انه تبين بعد انقضاء فترة من الزمن ان الغرض من هذا المعيار هو تعيين او تحديد وزن السلعة .

كانت التجارة الداخلية ضيقة النطاق فى مصر القديمة اما سبب ذلك فبسيط ، ذلك ان كل مديرية كانت تكفى نفسها بنفسها . ففى كل ضيعة ملكية او كهنوتية غزالوها ، وصانعو خورها وتجارها وغيرهم من الصناع . وكان الفلاحون ينتجون الطعام الذى يأكلونه ، ولهذا لم تكن هناك ثمة حاجة الى وجود التجار بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة

وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو ميدان التجارة الخارجية . ففى اوقات مختلفة نشطت تجارة مصر الخارجية مع جاراتها كالنوبة وسوريا وليبيا ، ومع البلاد التى خضعت للحكم المصرى . وفى أوقات اخرى نشطت التجارة الخارجية مع جزر ايجان ودولة بانت (الصومال) وهما من الدول النائية التى كان من المستحيل غزوها ..

ترجع معرفة المصريين بالنوبة (السودان حاليا) الى عصر المملكة القديمة ، وربما قبلها . فمن حين لاخر ، كان المصريون

القدماء يغزون هذه البلاد ويرغمون اهلها على دفع الجزية وقد بلغ نشاط ملوك الاسرة الثامنة عشرة بصفة خاصة أشده فى هذه المنطقة . ومن النوبة جاء الابنوس والعاج والاحجار الكريمة وريش النعام (لصناعة المراوح) وبيض النعام والقردة والاسود والزراف .

تلك كانت الغنائم الرئيسية ، وكانت تذهب الى مخازن فرعون او كهنة آمون . اما بالنسبة للدول الاخرى ، فمن الواضح انه كان بينها وبين مصر تبادل تجارى . فكانت هناك مثلا ، «ارض بانت» المجهولة التى لم يكن احد متأكدا تماما من موقعها وان كان بعض الكتاب قد قالوا انها موجودة على ساحل الهند الغربى ، الا ان الراى الذى صادف قبولا عاما هو انها موجودة على ساحل افريقيا جنوب البحر الاحمر فى المنطقة التى يشغلها الصومال حاليا

يوجد فى دير البلح الذى انشىء فى عهد الملكة العظيمة حتشبسوت رسم مشهور يبين بتفصيل مذهل حملة اعدت لغزو (بانت) بتوجيه من الملكة ، وقد وصف ايرمان هذا الرسم بدقة فقال :

« فى ميناء على البحر الاحمر احتشد الاسطول الذى تقرر ان يذهب به جنود صاحبة الجلالة الى تلك البلاد النائية . وكان طول كل سفينة فى هذا الاسطول ٦٥ قدما ويتولى تسييرها ثلاثون ملاحا ، ولها اشرعة هائلة تبرز على جانبيها كجناحين كبيرين .. وكان اوعية المؤن الضخمة تنقل الى السفن . بينما نحرت ذبيحة للالهة «هاتور الهة بانت» لكى ترسل ريحا رخاء . ثم نشرت الاشرعة واستقل الملاحون السفن وتهيأوا للرحيل . فغطسوا مجاديفهم الطويلة فى الماء وبدات السفن تتحرك فوق صفحة الماء وبذلك بدات الرحلة

الجميلة الى الارض المقدسة (بانت)

والى جانب هذا الرسم يوجد رسم اخر يبين وصول الاسطول الى بانت . وقد رسم الفنان الذى رافق هذه الحملة منظر اكواخ بدائية حقيرة مشيدة على أعمدة قصيرة وسط النباتات الاستوائية الكثيفة مما اثار سخط المصريين المتمدنين واشمئزازهم . وكان رجال بانت يرتدون قمصانا قصيرة ولهم لحى مدببة وجدائل شعر على النمط الذى رسمت به صورهم فى عهد خوفو اى منذ أكثر من الف عام وعندما هبط المصريون الى البر ، أخذ رجال بانت يتقدمون نحوهم فى خضوع وعلى راسهم زعيمهم الذى كانت زوجته متناهية البدانة تعانى من مرض الفيل .

وبدات عملية التجارة .. كان المصريون يجيئون ويذهبون سراعا عن مهابط السفن وهم يحملون العاج والابنوس والذهب الابيض فى بلاد آمون والاخشاب المعطرة وجميع انواع صبغات العيون والكلاب والقردة والارقاء واولادهم واشياء أخرى لم يسبق ان قدمت للملك منذ بداية الزمن

وكان البخور آهم سلعة اشتهرت بانت بانتاجها ، ومن ثم فأن المصريين لم يأخذوا معهم اكداسا منه فحسب ، وانما اخذوا معهم ايضا عددا من اشجاره لاعادة زراعتها فى مصر

فماذا اخذ اهالى (بانت) فى مقابل ذلك ؟ وضع المصريون منضدة كبيرة على الشاطىء ، واحاط الاهالى بها وراحوا يتأملون السلع التى جلبها الاجانب معهم : عقود بهجة ، خناجر ، فؤوس للقتال ، خبز . جعة . نبيذ . فاكهة . وجميع السلع المصرية . ولكنها كانت تبدو فى مجموعها اقل قيمة من السلع التى اخذت مقابلها .

قلنا أنه كانت هناك علاقات تجارية بين المصريين وكريت وجزر البحر الاعظم وسوريا . ولهذا كان صانعو الاسلحة

يسافرون الى هذه الدول لبيع مصنوعاتهم

ومن السلع التى كانت مصر تستوردها من سوريا بطريقة المقايضة ، القمح مقابل السفن والعربات والاسلحة والالات الموسيقية والخمور والجياد والثيران والبقر والماشية الاخرى الا انه كان من النادر ان يصل شيء من هذه السلع الى عامة الشعب ، اذ كان معظمه يذهب الى مخازن الملك والالهة ونظرا لان العمال المصريين لم يكونوا يملكون اية وسيلة لشراء الطعام فانهم كانوا يعتمدون اعتمادا كليا على سادتهم فى الحصول على الكفاف .

وكان الجميع — من السادة العظماء الى ادنى الطبقات — يدفعون ضرائب باهظة ، ولعل بعضهم يتساءل كيف كانت الضرائب تجبى من الناس برغم عدم وجود نظام للنقد ؟ والواقع ان طريقة جباية الضرائب من الفلاحين والمزارعين كانت سهلة نسبيا ، كان عليهم أن يقدموا للدولة حصة من المحاصيل التى تغلها اراضيهم وحصة معينة من ماشيتهم والثياب التى تغزلها نساؤهم وبناتهم .

لكن كيف كان الكتبة والموظفون يقدرون الضرائب ؟

كان الموظف الكبير يدين بسلطته وثرائه للملك ، اى الدولة ففى مقابل خدماته وتقديرا وتكريما له ، كان الموظف الكبير يحصل على فيلا جميلة ، وعربة انيقة . وقارب فاخر . وعدد كبير من الزنوج وغيرهم من الارقاء الى جانب الماشية والاطعمة والخمور والثياب . وكانت هذه الممتلكات تسجل باسم الموظف . ومن ثم كان رجل تقدير الضرائب يقدر الضرائب على ثروة مثل هذا الموظف بما فيها من الهبات .

اما عامة الشعب فكان تقدير الضرائب عليها جزافيا ، ولهذا عمت الشكوى وكثر الاجحاف ولكن بدون جدوى ..

الفصل الثانى عشر

فرعون مصر

كانت جماعة من الفتيات الصغيرات يقفن فى بهو معمد معتم ، وكانت شعورهن السوداء المستعارة المجعدة تتدلى فوق اكتافهن العارية ، بينما تدلت ثيابهن شبه الشفافة المصنوعة من الكتان المقوى الى اصابع أقدامهن تقريبا . وكانت اظفار اصابع ايديهن واقدامهن مصبوغة بالحناء وقد حملن فى أيديهن الجميلة ال « سايسترا » وهى عبارة عن اقراص معدنية معلقة فى مقبض من الخشب ، فاذا هزت احدثت ضوضاء عالية غير سارة . وكانت هؤلاء الفتيات كاهنات معبد امون – رع وعلى راسهن زعيمتهن نوفرت التى ابلت من مرضها .

كانت ابنة الوزير مسرورة لانها شفيت فى وقت يمكنها من الاشتراك فى هذه المناسبة السعيدة ، فقد كانت طيبة تحتفل بعودة تحتمس الثالث « منخفر » وملك الجنوب والشمال وحبيب امون ظافرا بعد غزواته الاخيرة . فبالامس راقبت نوفرت جيش فرعون الظافر وهو يدخل طيبة ، وهاهى اليوم تنتظر بداخل معبدامون مع غيرهامن الكاهنات ليغنين ويرقصن امام فرعون عند مجيئه الى المعبد لتقديم الذبائح والقرابين . وفى الفناء الخارجى المكشوف وقف الكهنة على اختلاف مراتبهم بأرديتهم البيضاء فى انتظار وصول فرعون .. كان هذا هو الفناء الداخلى المؤدى الى البهو المعمد الذى يوجد خلف هيكل الاله ، ولم يكن يسمح لغير الكهنة بدخول هذا الهيكل ، وان كانت هناك ساحات اخرى تحيط بها اعمدة وتماثيل هائلة . وكانت هذه الساحات مكتظة بافراد الشعب من مختلف الطبقات ومن

بينهم ضباط الجيش ورجاله ، وقد ترك ممر عريض فى قلب الساحة الرئيسية ليدخل الملك ومرافقوه منه الى المعبد

وفى الخارج ، وقفت صفوف من جنود الجيش المصرى بوجوههم السمراء وحرابهم ودروعهم وخوذاتهم المدببة ، ومن خلف هذه الصفوف وقفت جماهير الشعب التى كانت تتكلم باصوات تصم الاذان .

وفجأة ارتفعت صيحة هائلة .. فتلفت الجميع ناحية النهر فراوا موكب الملك النهرى مقبلا يتهادى على صفحة الماء .. وكان الموكب مؤلفا من عدد من القوارب الكبيرة المكتظة بموظفى البلاط والحرس الملكى والشرطة النهرية .. ولا عجب فان منخفر ، الغازى الاكبر ، والبطل الذى يرهبه جميع اعداء مصر ، قادم مرة اخرى ليقدم الذبائح لابيه امون ومعه غنائم حربية كثيرة سيهبها لملك الالهة .. كان هذا هو العام الثانى والاربعين من حكم تحتمس الثالث ، وقد قام فرعون بسبع عشرة غزوة خلال هذه الفترة من حكمه ، وكان يعود منها جميعا منتصرا ، حتى لقد أصبحت الدول من النوبة جنوبا الى الفرات شرقا تدين بالولاء لفرعون بينما كانت فرائص ملوك الدول الاخرى المجاورة ترتعد منه

وفى الساحة الداخلية كف كبار الموظفين عن التهامس ، ووقفوا صامتين . وراح رخماير يعبث بدملج « حلية » ذهبى صغير حول ذراعه ، بينما ثبت القائد امنمحاب خوذته فوق راسه ودفعت نوفرت خصلات شعرها المستعار الى الوراء .. ومن بعيد ارتفعت اصوات الابواق مختلطة بزئير الجماهير التى كانت تردد :

«الحياة ! الرخاء ! الصحة .. الحياة . الرخاء . الصحة»
وتطلعت عيون الكهنة الى البوابات البرونزية الكبيرة ،

وسمعوا وقع اقدام ، وصوت حوافر جياد ، وقرقعة عجلات مركبات . فأدركوا ان الموكب يدخل الى الساحة الخارجية حيث احتشد الالوف راكعين امام فرعون

وردد الفضاء عبارات :

« الحياة ! الرخاء ! الصحة . الحياة . الرخاء . الصحة »

وسقطت الظلال على الارض من البوابات البرونزية .. كان الموكب يدخل المعبد . فجاء الكهنة باثوابهم البيضاء اولا ، وبعدهم جاء ضباط الحرس الملكى وهم يسيرون الهوينا وقد بدت على وجوههم علامات الصرامة ، وتلاهم حملة المراوح بمراوحهم الكبيرة المصنوعة من ريش النعام ، ومن ورائهم محفة محلاة بالنقوش الذهبية يحملها اثنا عشر نبيلا وجلس فوقها فرعون

وفى التو سجد الجميع فيما عدا الكهنة وكبار الموظفين

وهنا تقدمت الكاهنات النحيلات ببطء وعلى راسهن نوفرت وهن يحركن الـ « سايسترا » ذات اليمين وذات الشمال ويرددن :

كم هو جليل ذلك الذى عاد منتصرا

لان امون جعله ينكل بأمراء فلسطين

فرد عليهن الكهنة بصوت عميق قائلين :

ان الشعب كله .. وشعب منزل امون فى عيد

لان امون — رع يحب الملك

كان تحتمس الثالث رجلا ضئيل الجسم ذا وجه مليء لا يدل على اية عبقرية عسكرية . وكان حينذاك قد جاوز السبعين من عمره ، ولكن حياة الحرب والقتال اكسبته

خشونة وصلابة عود . وكانت ذراعاه العاريتان اللتان لفحتهما أشعة الشمس مفتولتين ، كما كانت هيئته كهيئة الشباب . وكان يرتدي تاجا طويلا مزدوجا يرمز الى ذلك الاتحاد الذى تم بين مصر العليا ومصر السفلى منذ ١٥٠٠ سنة . وكان يحمل فى كلتا يديه رموزا اخرى ، ويرتدى ثوبا من الكتان الابيض المقوى ونعلا ذهبيا

❋ ❋ ❋

كانت وظيفة فرعون دينية اساسا ، اذ كان هو الملك الكاهن ، اى انه كان الواسطة بين الشعب وبين القوى غير المنظورة التي تتحكم فى مصائر الناس ، كما انه كان يمثل الشعب بمعنى اكثر عمقا مما يستدل من المفهوم العصرى للكلمة ، فان صحة الشعب وحيويته كانت تتجسد فى الملك ، ولهذا فمنذ الاف السنين قبل ذلك العهد ، اى عندما بدات الحضارة تزدهر فى وادى النيل كان الملك يحكم الشعب طالما كانت قواه متكاملة ، فاذا تدهورت قواه ودب فيها الوهن جاز للشعب ان يضحى به . وكانت هذه العادة منتشرة ايضا بين شعوب بدائية اخرى . الا ان هذه العادة ما لبثت ان اهملت بمرور الزمن

لم يكن الملك بشرا بالنسبة للمصريين القدماء ولكنه كان الها .. ابن امون — رع نفسه .. ولهذا فانهم كانوا يعتقدون ان الملك لا يموت ولكنه ينضم الى ابيه امون ، اى انه « ينطلق الى أفقه »

فهل كان الفراعنة انفسهم يصدقون انهم ابناء الهة ؟ اعتقد انهم كانوا يؤمنون بذلك ، اذ يكفى ان يفكر المرء فى تأثير السلطة المطلقة التى كان الفراعنة يتمتعون بها ، وما

يحيط بهم من هالة دينية قوية ليؤمن بان هذا كله كان كفيلا بأن يجعل الفراعنة يعتقدون انهم الهة وابناء الهة .

كان الملك محاطا بالطقوس والرموز الدينية ، ولهذا كانت كل ساعة من حياته محددة لاداء عمل معين من الاعمال الكثيرة التي يتطلبها منصبه السامي بحيث لا يترك له مجال يذكر المتعة . فكان اذا استيقظ من النوم في الصباح اطلع على الرسائل التي وردت ، ومن المحتمل ان يملي ردا على بعضها . وبعد ذلك يشترك مع الكاهن الكبير وبعض افراد الحاشية في العبادة وتقديم بعض القرابين

ويقال ان طعام الملوك كان بسيطا ومحددا مما يدل على انهم كانوا خاضعين لنظام تغذية يكفل المحافظة على صحتهم من اجل رفاهية شعبهم .

وعندما كانت تجرى محاكمات تمس بعض افراد الاسرة المالكة ، فان هذه المحاكمات كانت تأخذ الطابع القانوني المحدد بغير ان يحضرها الملك ، والواقع ان فرعون كان يتمتع بسلطة أقل من تلك التي كان الامبراطور كلودياس او الملك هنري الثامن يتمتعان بها ، كما أن مسئولياته لم تكن تنتهي بموت رعاياه ، فكما كان يمنحهم الارض في الحياة ، كان يوقف الارض ايضا للانفاق على مقابرهم بعد موتهم حتى يمكنهم ان يعيشوا في الحياة الاخرى .

* * *

لنعد الى زيارة تحتمس الثالث للمعبد ..

دخل حاملو المحفة الى الهيكل المعتم حيث كان على فرعون — باعتباره الكاهن الاعظم — ان يؤدي الطقوس المقدسة امام آمون ..

هاهو ذا فرعون يقدم الذبائح لتمثال امون الذهبى فى اقدس بقعة بالمعبد .. ان اثنين من الكهنة يرتدى احدهما قناع هوراس الشبيه بالصقر ، ويرتدى الاخر قناع ثوث الشبيه بابيس اله الحكمة ، يعاونان فرعون فى فتح باب الهيكل المقدس ، واطلاق البخور امام التمثال الذهبى ، ورشه بالماء المأخوذ من البحيرة المقدسة . وتقديم تاجه وشعاره له ووضع الاطعمة امامه ..

وكان الضوء الوحيد الموجود فى الهيكل صادرا من فتحة فى سقف الهيكل .. بينما كان صوت ترتيل الكهنة يسمع خافتا من بعيد فيضفى رهبة على جو الهيكل

وفى تلك الاثناء كانت صفوف طويلة متراصة من قوات الجيش تسير فى شوارع طيبة فى طريقها الى المعبد .. وكانت هتافات الجماهير تشق عنان السماء كلما وقعت عيونها على عربات الغنائم التى تجرها الثيران ، تتبعها طوابير من الحمير المحملة بالصناديق المملوءة بالذهب والفضة والاحجار الكريمة واجولة البخور .. الخ . وجاء بعد ذلك قطيع كبير من الماشية والثيران والغزلان ، ثم مئات من الارقاء رجالا ونساء يحرسهم الجنود .

اما كبار الاسرى فلم يكونوا فى هذا الموكب . فان سبعة او ثمانية من ملوك وامراء الدول المهزومة كانوا يجلسون فى الانتظار بغرفة مجاورة للمعبد وقد لطخت ثيابهم بالدماء وتمزقت ، واوثقت أيديهم خلف ظهورهم ، وتولى حراستهم جنود مصريون أشداء . اذ كان المقرر ان يقدم هؤلاء الاسرى ذبائح لأمون جريا على عادة قديمة العهد .

وتوقف الموكب واخذ الضباط يصدرون الاوامر لتنظيم

رجالهم ، وهكذا استعد الجميع للحظة خروج فرعون من المعبد ليركب محفته ويتصدر جيشه الظافر .

وكانت احدى فرق العربات تقف وقتئذ بالقرب من مدخل المعبد بعد ان تقرر ان تحظى بهذا التكريم لما ابدته من بلاء حسن اثناء المعركة . وفى احدى عربات هذه الفرقة وقف شابان هما سنموت وكيناموت

كان سنموت قد شفى من جراحه ، ولكنه اصيب بالفالج وبالتواء فى احد جانبى وجهه . فراح يفكر بمرارة فى انتهاء مستقبله كمحارب . اما كيناموت فكان يشعر بسعادة غامرة لانه خاض معركة رهيبة واستطاع ان يظهر نبوغه فاستحق الترقى . ولكنه كان يشعر بأسى عميق من اجل صديقه

قال سنموت متبرما : لكم اتمنى ان ينتهى الحفل سريعا

فقال كيناموت : انها لحظة الفداء

فغمغم سنموت ، وقد اختلجت عضلات وجهه وبدت عليه علامات الحنق : تلك عادة همجية

فقاطعه كيناموت ببرود : ولكنها عادة كما تعلم

فانثنى سنموت اليه وقال : انك تتكلم كأبيك .. انها السعادة .. انها السعادة دائما فى مصر .. هكذا فعل ابوك وهكذا يجب ان تفعل انت

ــ ولكن هذا هو ما كان الاسيويون سيفعلونه بنا لو اسرونا !

ــ وهل يكفى هذا عذرا لنقلد البرابرة ؟

فتنهد كيناموت ، ثم قال : يبدو انك لا تحب مصر !

فاجاب صديقه : انك مخطىء . فأنا احب مصر ، لكن هل معنى ذلك ان اوافق على كل ما يجرى هنا ؟ ليس جميع

الاجانب يضحون بالنبلاء الاسرى .. ان أهالى كفتوى لا يفعلون ..

ـ بل يفعلون يا سنموت .. لقد قال لى بيبيس انهم يضحون بالاسرى لالههم ، وهو تور

ـ اذن فان بيبيس احمق .. ولعله يعنى الوثب على الثور وهو امر مختلف تماما

ـ الوثب على الثور ؟ ماذا تعنى ؟

ـ نعم .. ان الكفتويين يدربون اسراهم على منازلة الثور فى الحلبة ، وعلى الاسرى ان يثبوا على قرنى الثور ـ فاذا كانوا شجعانا اذكياء استطاعوا الافلات من الموت . واظن ان ذلك يختلف تماما عن تهشيم راس الاسير بهراوة

وفى تلك اللحظة انبعث زئير مخيف من ناحية المعبد ، وسرت عدواه الى الجماهير المتجمهرة فى جميع ارجاء المدينة ، وهكذا رددت المدينة زمجرة شبيهة بقصف الرعد

وانتفض سنموت ، وقال : لقد انتهى كل شيء .. اظن اننا نستطيع السير الان

وفى بهو الاعمدة تمددت جثث الاسرى المقتولين فى بركة من الدم .. وهزت نوفرت وزميلاتها الكاهنات الـ «سايسترا» وبدأن فى ترديد انشودة معركة آمون .

وحمل الملك على محفته ببطء .. وسجدت الجماهير أمامه الى ان استقل عربته وتصدر قواته المنتصرة ..

وهز سنموت رأسه وقال :

ـ لكم اود الرحيل الى بلاد مثل كفتوى !

الفصل الثالث عشر

منزل الابدية

اقبل الخريف ومعه الفيضان .. فهناك بعيدا ، بعيدا جدا الى الجنوب بدأت مياه النيل الازرق التى غذتها الامطار فى الاندفاع الى المجرى الرئيسى حاملة معها ثروة كبيرة من طمى جبال الحبشة .. ولكن المصريين القدماء لم يسمعوا مطلقا عن الحبشة ولا عن النيل الازرق لان العالم كان ينتهى فى نظرهم جنوب النوبة ، اما الفيضان ، واهب الحياة والمعجزة السنوية ، فكان هدية من رع .. وفى طيبة ، وعلى طول النهر الملتوى كالافعى ، كان الكهنة يدرسون «مقاييس النيل » . ويقارنون مستويات ارتفاع ماء النهر بما كان عليه فى الاعوام السابقة ، فعلى صدى قراراتهم كان الكهنة يقدرون المحاصيل المرتقبة ومقدار الضرائب التى يمكن فرضها ..

لقد بدأ النهر فى الارتفاع منذ ثلاثة اشهر ، اى فى شهر اغسطس ، فاحتفل المصريون بوفاء النيل ، فى الشهر الماضى اى فى شهر سبتمبر ، كان الفيضان قد بلغ ذروته . اما الان — فى شهر اكتوبر — وفى مدى اسابيع قليلة فسيبدأ النهر فى الانخفاض ، ويبدأ الفلاحون فى نثر البذور فى شهر نوفمبر .

ان صمتا عجيبا يخيم على المدينة الملكية .. فمنذ شهور قليلة كانت هناك حقول خضراء تمتد الى سفوح التلال الجيرية ، ولكنها تحولت الان الى ما يشبه البحيرة ، فانت تستطيع ان تركب قاربا من المرسى الموجود على الشاطىء الشرقى للنيل ، وتنزل على مسافة قصيرة من مدينة الموتى

على الشاطىء الغربي .. ومع ان فلاحين كثيرين اصبحوا عاطلين ، فان البعض جند للعمل في الاثار . وكانت هناك سفن كبيرة تصل من اسوان وهي محملة بكتل الجرانيته ، بينما كانت اعمال الانشاء والتوسع تجرى فى معبد الكرنك

اننا الان فى الصباح المبكر ، والسفن تمخر عباب الماء بلا توقف واشرعتها تلقى ظلالها فى اتجاه الشاطىء الغربى الصخـرى ..

وفى قارب انيق جلس الوزير رخماير وزوجته مريت انهما ذاهبان لزيارة مقبرة رخماير « منزل الابدية » الذى يجرى نحته فى الشاطىء الصخرى الغربى استعداداً لموته الوزير . ولم يكن فى ذلك شيء غير عادى ، لان اصحاب المناصب الكبرى كانوا ينفقون وقتا كثيرا ويبذلون عناية كبيرة فى اعداد منازلهم الابدية مثلما يفعلون فى العناية بمنازلهم الارضية ، وذلك لايمانهم بان الحياة قصيرة والموت طويل . ولهذا كانوا يعنون اشد العناية باعداد « منازلهم الابدية » التى ستسكنها الروح .

وتختلف هذه المقابر من ناحية الحجم تبعا لثراء واهمية صاحبها ، الا انها تشترك جميعا فى صفات معينة . فهناك فجوة عميقة تؤدى الى غرفة الدفن محكمة الاغلاق التى توضع فيها الجثة المحنطة . وهناك غرفة تحتوى على تماثيل الميت وزوجته وتوضع عادة فى مواجهة غرفة الذبائح او « الكنيسة » التى يقدم اقارب الميت الطعام لروحه فيها . اما الغرض من التمثال ـ الذى يمثل الميت تماما كما لو كان فى حياته ـ فهو ان تسكنه الروح بعد مغادرتها الجسد .. وتغطى جدران هذه الغرف رسوم ونقوش كتلك التى وصفناها فى الفصول السابقة والتى تصور الاعمال التى كان الميت يؤديها اثناء حياته والتى يتمنى ان تستمر فى حياته

الثانية .. وعلى الجدران ايضا كتابات مقدسة لمساعدة الميت عندما يقف فى غرفة حساب اوزوريس ، ورسوم تمثل القرابين التى يقدمها آقاربه وهى القرابين التى يمكن ان تتحول ، بطريقة سحرية ، الى اطعمة حقيقية اذا لم يؤد احفاد الميت واجبهم ويقدموا الاطعمة لروحه

ووصل القارب الى نقطة عند الشاطىء صالحة لنزول الوزير وزوجته .. فنزلا الى البر ، وساعدهما الخدم بأن حملوهما على مقعدين مريحين وارتقوا بهما المنحدر المواجه للشاطىء .. وفى طريقهما الى المقبرة ، مر الوزير وزوجته بشوارع المدينة التى يسكنها المشتغلون بتحنيط الجثث ، وصانعو التوابيت ، والحفارون ، والرسامون . وصانعو الاثاث ، والكهنة الذين يلزمهم واجبهم بتقديم القرابين فى المقابر .

وتأمل الوزير قمرة من تلك التى تحفظ الجثث فيها . وكانت رائحة النطرون النفاذة تتصاعد من حمامات النطرون التى تغرق الجثث فيها اياما محددة .

كانت عملية التحنيط تستغرق سبعين يوما ، الا انه كانت هناك وسيلة أسرع وارخص ، والواقع أن المحنطين كانوا يعرضون على أقارب الميت ثلاثة طرق ليختاروا منها ما يتلاءم مع حالتهم المالية . وكانت اكثر الطرق تكاليفا هى الاتية :

كانوا يخرجون مخ الميت من انفه بملقط من الحديد . وبذلك يخرجون جزءا منه من الجثة . اما الجزء الباقى فكانوا يخرجونه بواسطة العقاقير . وبعد ذلك يستخدمون حجرا حبشيا حادا فى احداث قطع فى الجنب يخرجون الامعاء منه . وبعد تنظيف الجثة وتطهيرها يملاونها بمواد

الميره والكاسيا وغيرها من العطور ، ثم يعيدون خياطة الفتحة وبعدئذ يغرقون الجثة فى حمام النطرون حيث تبقى فيه سبعين يوما لا اكثر . وبعد انتهاء هذه الفترة يخرجون الجثة ويغسلونها ويلفونها بأشرطة من الكتان الرفيع ويستعملون الصمغ للصقها وبذلك تنتهى عملية التحنيط ويتسلم اقارب الميت الجثة ليصنعوا لها تابوتا خشبيا على شكل جسم الانسان . ثم يضعون الجثة فى التابوت ويدفنوها فى المقبرة .

اما الطريقة الارخص فكانت تقضى باعداد الجثة على النحو التالي : يملأ عمال التحنيط محاقنهم بزيت الارز ، ويملأون الجثة كلها بهذا الزيت دون ان يحدثوا بها اية قطوع او يزيلوا الامعاء ، ولكنهم كانوا يحقنونها من الشرج، ثم يسدونه لمنع تسرب الزيت . وبعدئذ يغرقون الجثة فى حوض مملوء بالنطرون لمدة ٧٠ يوما ، وفى اليوم الاخير يعيدون فتح الشرج فيخرج زيت الارز الذى سبق ان حقنوا الجثة به ، وتخرج معه الامعاء والاعضاء الداخلية بعد ذوبانها كذلك يذيب النطرون اللحم فلا يتبقى من الجثة غير العظم والجلد . ثم تعاد الجثة الى اقارب الميت لدفنها

والطريقة الثالثة وهى ارخصها جميعا . فهى انهم كانوا — بعد غسل الجثة بسائل مطهر — يغرقونها فى حمام النطرون لمدة سبعين يوما ثم يعيدونها الى اسرة الميت لدفنها

هذا هو الوصف الذى قدمه هيرودوت لعملية التحنيط فى القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن هذه الطرق كانت تقليدية بدىء باستعمالها قبل ذلك بالاف السنين ، فقد حفظت جثث رجال ونساء الاسرة الثامنة عشرة على هذا النحو

وبينما كان رخماير وزوجته يصعدان المنحدر فى طريقهما

الى المقبرة ، مر بهم موكب جنازة ، فافسحا الطريق للقادمين فجاء اولا خدم يحملون اباريق من المرمر تحتوى على طعام ودهانات ثمينة ، وبعدهم رجال يحملون صناديق خشبية طويلة مملوءة بحلى الميت وثيابه . وفى اثرهم جاءت زلاقة يجرها رجلان بداخلها أباريق وضعت بها الامعاء المحنطة التى اخرجت من الجثة . وامام الزلاقة سار كاهن كان يرتل بصوت عميق ، بينما رافق كهنة اخرون الجثة نفسها وكانت موضوعة على عربة .. ومن وراء العربة سار اقارب الميت واصدقاؤه والندابات وكن يلطمن الخدود ويطلقن صرخات مروعة .

وظل الوزير وزوجته يتأملان الموكب الى ان غاب عن بصرهما ، ثم اشار الوزير الى الخدم فحملوا المقعدين وانطلقوا بهما فى الممر شديد الانحدار المؤدى الى مدخل مقبرة الوزير .

كان أمام المقبرة فناء اتساعه ٦٠ قدما يطل على باب المقبرة المستطيل ، وكان كبير العمال فى استقبال الوزير وزوجته . فلما رآهما سجد امام مولاه حتى لامست جبهته الارض ، ثم نهض ووقف جانبا باحترام ريثما يدخل الوزير وزوجته الى المقبرة . ونظرا لان الوقت كان مبكرا ، فقد نفذت اشعة الشمس والضوء الى الداخل ، وانعكست اشعة الشمس على مرايا من البرونز موضوعة بزوايا معينة فازداد الضوء فى الممرات .

كانت المقبرة على شكل حرف T يمتد ضلعه الاطول من المدخل فى بطن التل حوالى ١٠٠ قدم وكان هذا الممر اشبه بالنفق منخفضا نسبيا عن الباب ولكن سقفه يرتفع تدريجيا الى ان يصل الى ارتفاع كبير عند نهاية الممر . وفى

هذه النهاية ـ واسفل السقف مباشرة ـ يوجد محراب به تمثالان بالحجم الطبيعى لرخماير وزوجته وقد احاطت مريت خصر زوجها بذراعها فى حنان . وكان منظر التمثالين مفزعا ، وبالاخص فى تلك اللحظة التى سقطت اشعة الشمس عليهما فيهما .

وفى الجانب البعيد من الردهة كان العمال يلونون الرسوم التى صممها الرسامون بينما كان غيرهم ينقشون الرموز الهيروغليفية التى تشرح كل رسم . وبينما كانت مريت تتأمل تمثالها بعين فاحصة راح زوجها يقرأ النصوص المكتوبة اسفل الصور وهى الرسوم التى استقينا منها مادة هذا الكتاب .

وحينما وقع بصر مريت على الرسم الذى يمثل رسل الشعوب المقهورة وهم يقدمون الجزية لفرعون ، تنهدت وقالت :

ـ شد ما اعجب أين سنموت الان .

فأجاب زوجها وكان يتقدمها الخروج من المقبرة : انه يعبر الدلتا الان .

ذلك لان سنموت استطاع ـ بمساعدة رخماير ـ ان يحصل على منصب سفير فى جزيرة نائية لم يرها غير القلائل من المصريين . فقد أدرك الضابط القلق أنه اصبح عاجزا عن ارضاء حبه للمغامرة والاشتراك فى المعارك ، فسعى الى ايجاد متنفس آخر لاشباع حبه للسفر ، ولهذا كان حينذاك فى طريقه الى ارض كيفتوى حيث يغلب على الظن ان مصر لن تراه ثانية .

واذ خرج الوزير وزوجته من المقبرة جلسا فوق مقعديهما ، فحملهما الخدم هابطين بهما فى الطريق الى شاطىء النهر .

وعندما ركبا القارب ، تطلع رخماير الى الشاطىء وتأمل العلامة التى تركها ماء النهر المنحسر ، فأومأ برأسه ناحيتها وقال لمريت :

ـ لقد بدأ منسوب النهر فى الانخفاض

وبدأ القارب ينساب فوق صفحة الماء وكانت الريح رخاء ، فجلس الوزير فوق مقعد مريح ، وتطلع عبر النهر الى المدينة .

أدرك ان الدورة السنوية ستبدأ عما قريب ،وان الحقول لن تلبث ان تظهر ثانية حينما ينحسر الماء عنها ، فيبادر الفلاحون بنشر البذور ، وبعد فترة تتحول البقعة السوداء الى بقعة خضراء .. وعندما يحين موعد الحصاد يبادر الفلاحون بجمع المحصول .

وتنهد الوزير .. وسرح بخاطره لحظات

كانت الحياة تبدو جميلة فى تلك اللحظة .. ولكنه لم يستطع ان يتجاهل المستقبل .

لقد أعد للمستقبل عدته .. أعد منزل الابديه الذى سيأوى اليه جثته وروحه لاستئناف الحياة من جديد .

ومد يده واحاط كتفي زوجته بذراعه فى حنان

نعم ، لقد احسنت الحياة اليه .. منحته اولادا كثيرين ارتفع بعضهم الى مناصب مرموقة وحظوا بعطف فرعون .

اما هو فقد خدم الملك باخلاص ، وتفانى فى خدمة بلاده ، وسيظل يخدمها بأمانة ، ويخدم شعبه ويقضى بينه بالعدل الى ان يلفظ انفاسه الاخيرة وهو مستريح البال رضي النفس .

انتهى

طبع بمطابع الدار القومية
٥٩ شارع رمسيس
تليفون ــ ٤٥٤٠٥

هيئة قناة السويس

نبذة تاريخية :

منذ اربعين قرنا مضت انشا فرعون مصر « سنوسرت » الثالث اول قناة تصل البحرين الابيض والاحمر . ثم ردمت القناة واعيدت عـدة مرات وذلك فى عهود كل من دارا ملك الفرس وبطليموس الثاني والامبراطور تراجـان ثم عمر بن الخطاب . وحفرت القناة الحالية فى ابريل ١٨٥٩

وفى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ اعلن الرئيس جمال عبد الناصر تاميم الشركة فاعاد الي مصر حقوقها الشرعية

مشروع ناصر :

بدات الهيئة المصرية بتنفيذ مشروع ناصر الذى يهدف الي

١ ـ ازدواج القناة باكملها
٢ ـ تعميقها بحيث تعبرها السفن التي يبلغ غاطسـها ٤٥ قدما وحمولتها ٧٠٫٠٠٠ طن
٣ ـ استعمال الردار لضمان رقابة السفن
٤ ـ تعزيز اسطول الهيئة باحدث الكراكات

تاثير القناة علي الملاحة العالمية :

تختصر القناة طريق السفن بين الشرق والـ[illegible] بلغ ما توفره من المسافة ٤٠ فى الماية

الكتاب ٥٥ الثمن [illegible]
صدر يوم الخميس ٧ يوليو (تموز) ١٩٦٠